رواية

محسن خالد

إحداثيات الإنسان

« إحداثيات الإنسان »

◊ لوحة الغلاف : أحمد عبد المجيد

◊ تصميم الغلاف : مصطفى عجباني

الفصل الأول

لا شيء يشبه انعكاس نجمة ثابت على ظهر نهر متحرك مثل هذا المكان .

شيء قاتل جدا أن تبقى جامدا بلا معنى علي تيار زمن يجرف الكون و الحياة نحو غاية تتوارى في المجهول .

فإن كان الزمن صدأ كل شيء فهذا المكان يرقة متت فمها بأن يخلق ثغرة بين الأزل والأبد .

إنه محاولة قام بها الإنسان لإتلاف الزمن والبول على أهميته الشائعة في دنياه .

هنا في جوف أكبر سجن بمدينة ابن الحضارة التي سميت في زمن ماضي أو لاحق ود مدني ، تنتصب أبراج المراقبة كأذناب العقارب . والعساكر كالحو الوجوه يملؤون أحشاءها برائحة عرقهم وعطن البارود . ظلال هذه الأبراج تغطي أشباح المارين من تحتها بالنهار .

وبعد الغروب تطاردهم أضواء المصابيح الضخمة المثبتة على هياكل تروس كالساقية. لتلف بها الليل بطوله . كي يتفقد الحراس كل جحر في سماء وأرض ذلك المكان . عندما تسقط أضواء المصابيح وهي في تلك الحركة الدائرية والمتقطعة على البشر الذين يمرون من تحت الأبراج . يلوحون كشخوص ينتجهم وهم ماكينة سينما من ذلك النوع الذي ظهر كأول الأنواع وانقرض قبل قرون .

رفع سانتينو بصره مساء أحد الأيام ناحية أبراج الشؤم تلك ليقول ساخراً :

- هؤلاء الحراس أقرب جهة مسؤولة من هذه الناحية .

هذا هو المكان الذي يعيش فيه المساجين . أو على وجه الدقة الذي يتزاوغون فيه من الموت .

لن يكون وصفه مفيداً إذ أن منظر المكان نفسه له من الأبعاد الخفية ما لصورة الإنسان .

التي لا تكون ملخصة في شكل واحد لتراها من أول وهله ثم تنصرف بعد ذلك لتصفها متى شئت . وطالما أنك تقدر الأمور على نحو غير الذي تقوم به الكاميرا الآلية

فلن تستطيع أبدا أن تكون صورة حقيقية لمكان ما إلا بعد عشرات السنين وملايين الذكريات . أي حين يتهجى فيك المكان نفسه . إذ هو لوحده وبدون ذاكرة أحد لا يشبه شيئاً .

مباني صفراء تندس بين أشجار النيم كأسنان البدو المحشورة بين أكوام التمباك .

السنجك أكثر تلك المباني إصفراراً ومقدرة على المشي . رجل يعد في قائمة الموجودات التي لها هنا حضور من الأسمنت . قديم ومهدم كمبنى نسيته مشيخة العبدلاب أثناء رحيلها نحو بطن التاريخ . تقابله مارا كالأيام ، بلا انقطاع ومتراكماً على نفسه . مما يجعل له خاصية الانحشار في كل شيء . مع احتفاظه بخصوصية الزمان البعيدة عن أنف كل شيء .

مكتبه المكان الوحيد الذي يتأدب فيه المأمور . مكتب الشؤون الاجتماعية . هذه التسمية إن لم تكن لغة حكومة فلابد أن السنجك قد اخترعها بنفسه . إذ أنها غير مفهومه عملياً للمساجين . اللهم إلا إن كان تسليم الخطابات لأصحابها شؤوناً اجتماعية . رجل من النوع الذي يضيع عمره فلا تعرف أهو في الثلاثين أم الأربعين . مشيته تقرقع كأنه يرتدي حدوات حصان .

له شارب يشبه لدرجة التطابق ميزان أكسومي قديم . كان يستخدمه المطففون من تجار تلك الحضارة لغش الزبائن . إن ارتخى جهة اليسار فذلك يعني أن مكتب الشؤون الاجتماعية ضبط المسجون عند أثقل زنة خطأ إرتكبه . والمساجين يرهبون ذلك المكتب لأن المأمور يتأدب فيه . وإن إرتخى جهة اليمين فذلك يعني أن أحد معارفك الأوفياء جداً لم يستكثر فيك رسالة . كل ذلك يقرأ في ميزان السنجك الذي تغطي حراشفه أعلى فمه، الذي يبلغ عرضه أقصى حدود الإلتهام . سخر الفليل من ذلك الفم بقوله : (ما أسعد زوجة السنجك به . كل القبلات التي سوف تطلقها ناحيته في الظلام ستسقط حتماً بالمائة في فمه) .

ربما تحدث الفليل مرة أو مرتين عن فم السنجك ولكن صلبه الزائد عن قفاه كدفة المركب كان موضوع تندر الفليل الأبدي . إن أبصره الفليل وهو قادم من بعيد يصيح في المساجين :

(الصلب جاءكم بسنجكه)

اعتاد السنجك على أن يطلق أثناء حديثه ضحكات لا تنتمي للموضوع الذي يتحدث فيه . كما أنه يعرف أمورا يعتقد أصحابها بأنها بعيدة حتي عن عيون الشيطان نفسه . وربما لذلك أشاع معظم الذين شاركوا بشرى محمود غرفته تهماً من شأنها تثقيف الناس بأن السنجك يتقلد رتباً أمنية تفوق أهميتها منصب رئاسة الجمهورية . أي ربما هو رئيس سري للبلاد . لم يبخلوا عليه بأعلى الرتب والنياشين ولم يستكثروها عليه طالما أنه لا بد لأهمية مساجين السياسة أن تفوقها . وبالرغم من ذلك ظل السنجك قطار سكته فقط .

ماذا يقولون عني ؟ هذا السؤال الذي يفقع خصية من يحبون إنجاب البدع . هو لا يسأله مطلقاً فالذي سيفعله لن يبدده قول أحد . أهم هواية عند السنجك هي التقول على العلماء والفلاسفة . أما أكثر اسم استخدمه السنجك فهو تيشكا . وهو طبيب نوبي قديم مدّ يد العون إلى مواطنيه ولم يتفوه بكلمة واحدة . ولكن ما أكثر ما قاله على لسان السنجك ولم يسجله التأريخ . وبعد مضايقات كثيرة سببها له الملازم محمد حول سيرة هذا الطبيب النوبي تركه السنجك في حاله ثم اهتدى إلى حيلة اختراع الفلاسفة إلى مقولاته المخترعة . وليريه الملازم محمد أي ثعلبان هو ، إن كان الفيلسوف ومقولته كلاهما من اختراعه الخاص . الغريب أنك تشعر بأن السنجك لا يرغب في إقناع أحد بهؤلاء الفلاسفة والعباقرة المخترعين بقدر ما يرغب في السخريه والتفكه .

أما الهواية الثانية للسنجك فهي حرصه على أن يكون كلامه وأسئلته ذات اتساع كوني . ولذا فهو سيتجاوز حمدان ملاحظ مطبخ السجن كوحدة يمكن أن يوجه إليها سؤالاً مباشراً عن حاله أو عن موضوع بعينه . سيسأل عن أيام الله وحمدان ضمن ذلك . وإن كان حمدان حريصاً على أن يكون رجلاً ذا شأن فيمكنه أن يسل رأسه من بين أيام الله ثم يجاوب . يسأله السنجك :

- كيف تمضي أيام الله بك ؟

حمدان من أنصار جماعة إسلامية ناشئة والسنجك شيطان أغلف وليس من أنصار أي شيء . وإن كان يأتي إلى المسجد فكما تأتي لطخة قذارة في حذاء أحد المصلين . إذن لا بد أن تكون إجابة حمدان كما يلي :

- مثل الخراء .

حمدان في نظر السنجك بائس وبلا سلوى لذا فسيكافئه السنجك بظرفه الذي

سيخرج منه حمدان بمعنويات طيبة إن أحسن تقدير ذلك . يرد عليه السنجك متظارفاً :

- إن شاء الله خراء نحل ؟

ولأن السنجك يشك في ذكاء محادثيه عموماً يضيف شارحاً نكتته :

- أقصد إن شاء الله أيامك عسل ؟

يجيبه حمدان بدون أدنى حرص على إثبات ذكائه :

- بل خراءك أنت .

ينصرف السنجك وهو يلوك في فمه العريض ضحكاً شامتاً مع عبارة : (لا بأس ستظل تكرهنا أنا والفليل إلى الأبد وبلا رحمة). ثم يختفي السنجك في رفوف المكتبة الصغيرة بمكتبه . والتي تنعم بذات الأتساع الذي ينعم به صاحبها . فيها من المؤلفات مثل : الموسيقى والحضارة ، آداب عصر النهضة ، السودان عبر القرون ، المجموعات الكاملة لفلان ، تأريخ المؤرخين . يبرر السنجك حبه لمكتبته بأنه مطاردة ماضي مريضة يستحيل التعافي منها . يقرأ أي كتاب مهما كان تافهاً ويبرر لذلك بقوله : (في جزيرة منعزلة يمكن لأي امرأة أن تقنع أي رجل) . الثقافة عنده تبلغ مرحلة مرضية تنسحب حماها وإسهالها على كافة حياته . وربما يمتلك السنجك خاصية الحب ككل البشر . فأحياناً يجد بعض الوقت ليقول مثل هذه العبارة : (النوم مع التفكير في المرأة يصبح من الإختراعات العسيرة ونادرة). تتوفر في السنجك كل العوامل اللازمة لنجاح باش ممرض أو ميكانيكي . وتنقصه أدنى المواهب التي يمكنها أن تخلق حتى ولو فناناً فاشلاً .

حكى أن والده كان صاحب مكتبه في عطبرة لا غير . وكان من طبع ذلك الوالد إدعاء النضال . فلو أنك قابلته بعيداً عن المريسه فسيعرف لك نفسه على أنه عضو في جميع حركات التحرير التي تعج بها مدينة النضال . أما إذا قابلته في حضرة المريسه والشرب فهو حركات التحرير نفسها . وإذ تهوي كأسه في جوفه تبتل عروق الوطنيين كلهم .

يقول السنجك : (أقسم لي أبي الذي ليس لديه أي معرفة إلا بالأماكن التي تباع فيها المريسه بسعر أرخص . وقد كان في حالة حركة تحرير . أن المكتبة تحتاج بالرضا أو القسر إلى مقدراتي وشبهي وتهذيبي . بالإضافة إلى أنه لا بد لرجل خلق أجيال المناضلين من أن يرتاح . فكنت من نصيب المكتبة ولينتظر ذلك المستقبل الباهر ـ الذي يقولون بأنه ينتظرني ـ شخصاً آخراً أو فلينصرف . فالمكتبة تحتاجني بالضبط . وتهذيبي طلع نفس

التهذيب الذي يستخدمه الباعة في المكتبات) .

على العموم يزعم السنجك أنه كلما اختار لمسيره إتجاهاً يجد أن الأرض أمامه تحتفظ بظلوف من مرّ عليها من الأحياء . وعلى ظلوف الموتى غرقاً في الطين بلغ هو الخرطوم . فوجدها ليست داعرة فحسب بل جبانة ذكور . قبلها كحاضرة بلا ماضي . واحتمال أنه غفر لها ماضيها كتنازلات استعمارية ستخلص ما لها باسم التعويضات مستقبلاً . المضحك أن حاله الآن كحال رجل أراد أن يصرّ الدنيا في ثوبه فجلس لها على الأرض وفرده . ثم نهض وانطلق مطمئناً في الحياة . ليكتشف بعد نفاد عمر أنه ترك الدنيا في مكانها وصرّ حصاة مع زبل غنم . قاتل الله الخرطوم . لقد اضطرته للمحافظة علي تهذيب المكتبات كي لا يشرّف الموت جوعاً . وصيرته حماراً كما يجب ليحمل أعباء الحياة ويشرّف كلية الآداب لفترة محدودة . فالزعم الثاني مباشرة أنه طرد من آداب الخرطوم في أحداث سياسية لا يجد لها إسما ذا اتساع يليق بضخامتها . كما أنه لم يأسف على شيء . لأنه بشكل أو بآخر رجل موهوب ولن يخسر الحياة لأي هزيمة كانت . لا شيء هنا يستحق الملاحظة . فالسنجك قد انتقل إليه مرض الإدعاء من أبيه . والبلاد أصلاً مصابه بداء سياسي غريب . ليس له دواء إلا تسمية الأحداث السياسية بالأعوام . لأنها الشيء الوحيد الذي لا ينفد . وكذلك تزييف إسمها كثيراً من كونها أحداث تخريب عشوائية حين تعرف بالأحداث السياسية . في إحدى المرات التي كان يتحدث فيها بشرى محمود عن عجز أمثاله في أن يضعوا نهاية لما يسمى بالأحداث السياسية .

قال أحد أصدقاء بشرى لاعناً :

- أحداث عام كذا يا بشرى كان أفضل منها وقوف الليل بطوله لتعديل صلب الحاكم ليقاصد صلب زوجته .

عيّن رفيق بشرى محمود ذلك العام المعني . ولما كان السنجك منحشراً هناك . قال للرجل مجاملاً و بتباهي :

- على كل حال لن يفوق عقوقها تلك الأحداث التي شهدناها في جامعة الخرطوم .

سأله بشرى بعفويه :

- في أي عام كانت تلك الأحداث ؟

فأجابه السنجك بكل أتساع :

- بل قل في أي قرون كانت . لم يكن عاماً . لقد كانت كل الفترة التي يزحف فيها القرن العشرين حتى يبلغ أواخر الواحد وعشرين .

ضحك كل الذين كانوا من حوله إلا بشرى . فإنه سيضحك يوماً ما عندما تستوي هذه العبارة كنكتة بالفعل . فالله لا يقول للأرض كوني وطناً بالساهل .

مما يحكيه السنجك أيضا أنه عمل مدرساً بالثانويات . وأن تلميذات مدرسة ما كتبن له على السبورة : « نفس القميص والبنطلون »

فكتب أمام تلك العبارة :

« وإلى الأبد . طالما أنها نفس الرؤوس التي يمكن استخدامها للمشي بدلاً عن الأرجل ولن يجد صاحبها صعوبة إلا في تسريح شعره »

ثم قذف السنجك بالطباشيرة معلناً دعارة التعليم والصحة وكل البنيات التحتية . المهم أن الناس لا يعرفون كيف أتى السنجك إلى هنا وتربع في مكتب الشؤون الاجتماعية المخترع هذا . وحينما سأله خالد العوض ذات يوم قائلاً :

- أليس لك أهل تزورهم ؟

أجابه السنجك بكل لا مبالاة الأولين والآخرين :

- لقد قلت لذلك الرجل الذي يسكن معنا في البيت وينادونه بأبي : (لم نتبادل الحب . لقد تبادلنا المنفعة . وإن كنت أنا مطالب فإني مستعد للسداد . شيكاتي جاهزه يا رجل . يسعدني أن لا أكون مديناً لأحد) . فقال لي وهو يتتعتع سكراً : (الذي تبقى لي عندك هو أن تغرب عن وجهي) . فغادرته والريح تصفر في فمه . ولم أتذكره بعدها إلا عندما أحببت ماريا بنت كنانه . كنت أقف أمام الآليات الضخمة وهي تنسف تلال قصب السكر . لقد استعادت ذاكرتي التاريخية واقعة القادسية . فالآلاف من سكاكين الآليات وسيوف العمال تلمع في الحقول عند الثالثة صباحاً . يالها من قادسية الآن . كل شيء له مهمه محدوده . البغاث للنار والمولاص ليغلي من تحت المكن . لقد هزني الموقف ففكرت أن أدعوه لزواجي فكتبت له : (من المؤكد أن فرحي يوم الخميس القادم . ما رأيك لو شاركتني ؟ ستتعشى جيداً يا أبي . فالناس هنا اكتشفوا أن اللحم يمكن أن يفعل به ما هو أكثر من الشواء . تعال لتتفادى تأنيب معدتك في المستقبل) . ربما اختلس السنجك نظرته للأبوة من مخلوق يعيش معهم داخل هذه الحظيرة فالاختلاس ليس جديداً على السنجك .

فياما مرّ بمؤسسات يجنى ثمارها بمراكب السحاب لشموخها فجعلها تقترض جالون الجازولين . وهاهو يرف في هذه الأنحاء كالكعوك كائن الجدب الشيطاني الذي تحل لعنته وهو في سمائه . فقط يوحي للأرض باللعنة فتصبح ملعونة .

دخل المأمور إلى مكتب السنجك كذنب لمخلوق سبقه في الدخول . لكثرة ما يصدره من حركات واهتزازات متغطرسة في وجه العساكر . الذين يحبونه لمعرفتهم أن تعليماته من أجل أن تصرف بطريقة استعراضية فقط . رجل واسع الصدر والأمام ولو أنه يستخدم قفاه . لذلك فهو منصرف عن كل شيء . تنتمي ثقافته للعصر الحجري الأول . ولا شك في أنه يجامل نفسه كثيراً حين يصف ثقافته تلك بأنها متواضعة . هو من النوع الذي يحفظ حكمة أو مقولة واحدة وعلى الناس أن يرحلوا بعد ذلك إن كانوا لايرغبون في سماعها كلما فتح فمه . في أحد الأزمان ظل يردد نحو ثلاث سنوات :

(كوّن مكتبتك مما تقرأه وليس من الكتب) . لقد ضحك كثيراً وبشماتة تكيد لنفسها قبل كل شيء . حينما سمعها من بشرى محمود لأول مرة . وقام بتجريبها أمام بشرى زهاء المائة مرة . ثم شرع في إضجار الناس بها . وبشرى نفسه لم ينجه أنه صاحبها . من صفاته الجبن . لدرجة أنه إذا صوتت مصارين بطنه في الليل يخلع قلبه الخوف . يدعي التصوف ويتزلف مكاشفي النوراني الذي سُئل يوما عن حقيقة تصوف المأمور فقال : (إنه مؤمن عادي لا جدال في أنه لو صلى الوتر أكثر مما هو مقرر فسوف يشعر بالتميز الفوري على باقي المصلين) . طوله في قامة جذع شيطان مقطوع . دخل المسجد ذات مرة وشرع يتحدث عن حقيقة التصوف . فلم يجد أحد فقهاء الدراويش إلا الجشاء التحتاني كتعقيب يليق بما قاله المأمور . فأطلقه مستفيضاً . ثم أعقبه بضحك مجاذيب الجشاء المفرقع أكثر وجاهة منه .

قابله السنجك بسعال لم يأخذ مداه . إذ لم يتخلص من المادة اللزجة التي تجذبه إلى داخل الحلق . تطايب الرجلان . وإن كان السنجك لم يكن يسأل المأمور عن أحواله بقدر ما كان يتبرم منه . خرجت إجابته للمأمور حينما سأله عن أحواله بضخامة وتسع أكثر من شخص :

- سيئون ، سيئون جداً . إلا أن المرض الكثير يجعلنا نستنتج أننا كنا ذات مرة أصحاء .

خفض المأمور حاجبيه على نحو تدريجي مما جعل عينيه تغوران بصورة أعمق في

محجريهما . مدعباً الغموض بهذه الحركة . ثم قال بحنق وملء عينيه بلاهته التي تفشل دائماً في أن تصير الغموض :

- لن يفرغ فم الإنسان من التمني إلا إذا ملأه تراب القبر ودوده .

عندما يقول المأمور كلاماً من جنس هذه المقولة يلوح في عينيه الاكتشاف والوقوف على أرض جديدة . هو أوضح رجل قابله السنجك في حياته . كما أن ادعاءه للغموض يشرحه أكثر . ربما لذلك شرد من فم السنجك ضحك كالطيف ثم سأله وهو يتنحنح كي تنقطع تلك المادة اللزجة :

- ما الأمر بالضبط ؟

أعاد المأمور ترتيب ملامح وجهه ليضعها في قالب فزورة جديدة ثم قال متضجراً :

- هؤلاء المساجين .. أوفف .. لا نكاد نجيب مطالب أفواههم حتى تأتينا مطالب دبورهم ...

صمت المأمور لفترة ثم صرخ بهستريا يستحيل معها ربط ما سيقوله بالذي سبقه . صرخ متسائلا :

- مالها هذه الحمّامات ؟

السنجك لئيم لدرجة أن يخلع أحاسيسه بذات البساطة التي يخلع بها حذاءه . فقد خلع فوراً شعوره بالرثاء تجاه المأمور ليقول له ببغض :

- بالذمة يا مأمور هل تبقت أصلاً حمّامات لتسأل مالها ؟

لا يستطيع المأمور أن يتمادى في مكابرته . فالروائح العفنه تبلغهما في ذلك المكتب . رائحة المخلفات الهشّه وهى تطفو على مياه المجاري المسدوده . المياه التي أصبحت شبه طين تغطيه طبقه من زيت الخروع . تحتلها البقع الصفراء والبنفسجية وإلى آخر طيف الخراء الذي تلونه الديدان . ولذلك قال المأمور في شبه انسحاب :

- ماذا أفعل أكثر من التسول . إي والله هذه مسؤولية من ؟

قطع السنجك الإجابة للمأمور كالتذكرة المثقبة الكعب وناوله :

- أها.. والله ؟ فعلاً أنت لم تزد على أن كنت خليفة الإنجليز في مبنى أقاموه قبل مئات السنين . لم تحرض همتك لتتحرك الأشياء من حيث أوقفها أولئك الناس .

تحرر المأمور من مسؤولية السجن دفعة واحدة حين قال :

- أنت تظلمني يا سنجك . المحافظ نفسه حين قرأ مذكرة مطالبنا قال لي : (لا تبالغ يا رجل إن وجود الناس هنا محض طعم ، صارقيل خاص تصطاد به الأيام الميتة) .

وصار السنجك لا يعنيه الأمر حين أجابه :

- لا بأس إن كان الناس يضعون الطعم على رؤوس السنارات ليربحوا شيئاً أكثر فائدة . فلابد أن للمحافظ ما يربحه . فلينخسف السجن بمن فيه إنها ليست القضية ! القضية أن صيده هذا قد أصبح شعاراً لكل مؤسساتنا الوطنية .

مضى زمن طويل قبل أن يفتح السنجك فمه الذي يشبه أسباب المجاعة متسائلاً :

- لم تسع يا مأمور في تنفيذ خطتي !؟

أجابه المأمور بصوت خانع ويائس كأنما ينسل من بطن لحد :

- إنها هذيان . كيف يكون لهذا السجن موارده الخاصة ونحن نتسول الرغيفه ؟ اعفيني من هذه الخطة أرجوك . أنا مدير سجن لا بورصة . إنني رجل بسيط وواضح والحكمة عندي فوق كل شيء .

قال السنجك هازئاً من تعريف المأمور لنفسه :

- بسيط وواضح ؟ .. وماذا ؟ الحكمة عندك فوق كل شيء ! ياه هذا أنت أم شعر أبي العتاهية ؟

ولأن السنجك رجل طموح ويلخص ذلك في قوله : (إنني كائن يزيد على كونه مضخة طفيليات للمرأة) . فقد أضاف قائلاً :

- إن كنا نريد اللحاق بالأمم فلابد أن نمشي خطانا قبل أن تقع ساقنا على الأرض .

ثم تدفق السنجك بصوت نهضوي هائل كأنما صاحت به مدائن الأرض كلها :

- كنت حاضراً يا مأمور حينما ألقى كل رجل طوبة يابسة في الخلاء فنبتت مدينة الفاو . إنطلقنا نعمل صامتين وكالريح ، لا تخلق لنا أصواتاً إلا الأشياء التي تقف في الطريق . أصواتاً جماعية ..هيلاهوب ، ثم نرمي الجبل على قفاه ونجلس الترعة في مكانه . لقد علفنا ظهورنا بجمرة الشمس نهاراً . وذاقت جبال الفاو ولادة الظل ليلاً على أيدينا . فأضواء ورش المعسكرات الخلوية لا تخبو أبدا . هكذا قلنا للعرب الرحل : (هذه فاوكم) . لقد قذفنا الرمح أولاً ليستقر في باطن الأرض . تماماً كما فعل عقبة بن نافع قبل أن يقول لجنده : (هذه قيروانكم) .

سكت الرجلان سكوت أشجار يابسة على مقبرة نائية ومهجورة لا يزورها أحد ولا ريح . لقد بلغا بصمتهما مشارف الموت الدنيوية . انحنى السنجك ناحية أحد الرفوف ليضع فيه كتاباً كان في يده . ثم سأل المأمور بتلصص :

- من تقدم بمطالب المساجين ؟

الانفعال الفوضوي لرجل بلغ سن المأمور يبدو كالخرف المبكر بعض الشيء . قفز المأمور ثلاث قفزات في مكانه ثم أتى بالرابعة على مكتب السنجك . كان قد نسى الملاعين . ثم أجاب السنجك باصقاً وشاتماً :

- التافهان بشرى وسانتينو .

ثم أضاف :

- كل الذين تغلب فيهم الحكومة ترميهم لي هنا . إي والله هذه مسؤولية من ؟ هذا الجنوبي وبشرى لا يفعلان ماهو طيب أبداً . فقط رعاية البلبلة والفتن . والمساجين الأغبياء ليسوا سوى أذناب لهما . أشهد الله أن الدنيا جتّت أو عضها كلب مسعور .

أجابه السنجك بنبرة قديمة كأغاني الحقيبة . وقد تعلق بصره بشيء لا يبين :

- إن الله لم يخلق شيئاً نافلة ليعترض مخلوق على وجود آخر . الدنيا تتغير يا رجل .

ثنى المأمور رجليه أسفل كرسيه ودفعه للوراء قليلاً ثم قال :

- فلتتغير الدنيا كما يحلو لها ولكن هنا ليست الدنيا .

لم يعقب حديث المأمور صمت ولا خلافه بل تلطف المأمور بطريقة نسائية واستخبر قائلاً :

- هل ينتمي بشرى لإسلاميين ما ؟

- لا إنه ولد صالح فحسب .

لا تستطيع أن تجزم إن كان المأمور يشك في معلومة السنجك أو كان يعبر عن دهشته حينما قال ضاحكاً وبطريقة معينة :

- إما أن هؤلاء المساجين قد صاروا ألغازاً . أو أنني أصبحت غبياً وسيعجزني بعد الآن جدول ضرب الواحد .

أطلق المأمور صوتاً من النوع الذي يمهد للكلام المتكلف . ولكن تحية الملازم محمد بددت ما كان سيقوله . حيّاه المأمور بتحية القواد العسكريين وبادره القول متعجلاً وبنية

المداعبة :

- آحح .. رائحة أولاد الخرطوم ! الغريب أننا نستخدم ذات العطور ولكنها لا تمنحنا هذه الوصفة . ربما تنبعث روائحهم الخاصة من وجودهم في خيالنا . إذ نحن نجلب عطورنا من ذات الكريستيان ديور اللعينة . إي والله هذه مسؤولية من ؟

العبارة الأخيرة ربما سمعها المأمور في فيلم أو مكان ما . وفي تقديره لا تنقصها الأهمية ليمتنع عن قولها هنا وهناك . تبادل السنجك تحية الإسلام مع الملازم محمد ولم يكترث للأناقة الخرطومية . وإن خانته يده وتحسست بزة عمال الدريسة التي يرتديها منذ أن عرف أن الناس لا يمشون عراة . جامل الملازم محمد قائده بابتسامة دس له فيها أن مداعبته لم تكن سوى تفاهة لا تليق إلا بأبله ينقل الطعام بيده إلى المغرفة . مما جعل المأمور يدس يده على الفور في مسبحته ويدعي الغرق الصوفي . فالملازم محمد قد تجاوزه بسفور ووجّه حديثه إلى السنجك قائلاً :

- أريد ملف دكتور بدوي خليل .

- لماذا ؟

- إنها رغبة محاميه .

علق المأمور قائلاً :

- هؤلاء الرجال يحشرون أنفسهم في أحرج المواقف ويطلبون من الله العون .

دعى السنجك الملازم محمد إلى أن يجلس حتى يجد له الملف . ولكن بشرط ، أن يجلس كأي كلب محترم يذهب نحو ما ألقي له من عظم فقط . بدون طمع أو تردد . وذلك لأن السنجك لا يسلّف كتبه مطلقاً . والملازم محمد لم يسبق له أن دخل مكتب السنجك وخرج بدون كتاب قط . أثناء تقليب السنجك في الملفات قال لنفسه ودون أن يقصد قول شيء لأحد وبطريقة تشبه التداعي :

- د. بدوي وكمال صنفان من بذرة غريبة . أينما قبرت نمت وكيفما حوربت كان لها ثماراً . بذرة خزنها العفن وأنبتها . فالذي بذرها دبر طائر .

عنون الملازم محمد كلام السنجك لشخصه ثم ردّ عليه :

- د. بدوي انتهى أمره . لن ينجو من هذه الهاوية . ما هي إلا أيام ونعلف به الآخرة .

التفت إليه السنجك بسخرية يائسة وقال :

- كأنك لا تعرف محاميه ! إنه ثمرة الشيطان . هل تراهن على أن بدوي سيخرج من هاويته وينطلق إلى حيث يريد ؟

شاركهما المأمور بقوله :

- أنت تقول ذلك لأنك تعادي هذا المحامي .

أجابه السنجك بعد كساد عمومي لمخزون صبره :

- يا حضرة المأمور العداوة شغل ، وأنا لديّ ما أعمله .

ربما أحس المأمور بأنه نافلة في ذلك المكتب . وليس هنالك أحد يأبه بصداقته . وأن الذين يرغب في مبادلتهم الحب لا يريدون مبادلته حتى السلام . لذلك لجأ إلى التواصل معتمداً على قيمته العسكرية فأواصرها محترمة أكثر من أواصر الصداقة والقرابة .

وجّه سؤاله للملازم محمد بلهجة لا توجه حتى للباشبزق :

- كيف الأوضاع عندك ؟

أجابه الملازم بدون أدنى إكتراث :

- أية أوضاع ؟ إنها إسهالات ودمتم .

تفرس المأمور وجه الملازم بحثاً عن اعتذار أو صيانة لتلك الإجابة الركيكة حتى قلة الأدب . ولكن الحرج فقط ولا غيره ما جعل الملازم يضيف :

- أظن أنه من الطبيعي جداً ولا أكون قد إستخدمت شجاعتي إن قلت لك أن الأوبئة تسهل المساجين أحشاءهم . هذا المبنى يفتقر للرحمة . والبشر الذين نخزنهم هنا يكسدون كل يوم يا حضرة المأمور .

تناول الملازم ملف بدوي من السنجك الذي أفلت ضحكاً كالطيف . فقد ابتلعها المأمور بتمامها وحامضة . ولاكته هي في أحشائه مغصاً . ولكن قبل أن يخرج الملازم محمد نادى فيه قائده آمراً :

- اسمع ، ارفع لي تقريراً بذلك . وإن لم تأتني به فمت من تلقاء نفسك ولا تضطرني لقتل أحد .

أتته إجابة الملازم :

- أمرك يا فندم .

من خارج المكتب وبصوت متخابث . وعاد هو ليدعي الغرق الصوفي من جديد .

لم يفت السنجك أن مقدمة إبن خلدون اختفت من فوق مكتبه . وبرغم ذلك إنشحط في مكانه ولم يتحرك . كمحراث بلدي شدته الثيران حتى تقطعت حباله . ثم تركته مغروساً فى الهجير وحيداً وولت هاربة . وحتماً لن تعود إلى شقاها .

تفحص السنجك مكونات مكتبه : ثلاثة كراسي كشرك الطير تماماً . إما أن تباغتك بمصير مجهول وإما أن تطردك على الفور . خزانات كتب مفككة استخدم كافة الحيل ليحشر سرير نومه بينها . مرآة متوسطة الحجم ومسكونة بالأرواح . فحركة الأشباح فيها لا تنقطع أبداً . ترتفع بجانب مكتبه مباشرة . ربما يستخدمها كمقبرة لوجوهه الميتة .

فما أن تقترب منها حتى تصدمك رائحة الحنوط . أو ربما يحدد بها من خلال رؤية وجهه في أي زمن هو .

بعض لوحات عميقة ركبّت في الجدران المتصدعة على نحو مؤقت . هذه اللوحات تحسب لصالح مجهولية المكان أكثر من زينته . هنا ينام ويأكل ويعمل ! ما أسهل ترحيل دنيا السنجك . قلب السنجك عينيه فخرجتا من محجريهما يصحبهما صليل ولمعان . كخروج الخنجر من غمده . وتطلّع بهما إلي خارج النافذة ثم تمتم بذهول :

– ليس هنالك ماهو أدعى للتأثر من بكاء رجل وحيد في بلاد غريبة ونائية . لا أدري متى تعتقني رائحة هذه الغرفة وألحق بالأيام . ما أغباك يا سنجك . الشمس دائماً غربك تجذف في الغيوم . يا جليل ماريا . لكم هي الدنيا ضيقة ولا تسع لجناح واحد عندما لا نعثر فيها على الحب أو نفقده .

شخص السنجك ببصره ناحية المكتبة فلاحت له كسفينة تغرق في الملح . ولا يحول بين أخشابها المتحطمة وبين قاع البحر إلا أفواه الحيتان . ثم تابع قائلاً :

– المادية ، المثالية ، الوجودية ، الفوضوية وكل ضروب الهرطقات . لا تعني أي شيء فى غياب المرأة . لقد عشت مع ماريا حياة حقيقية . اعتبرت معها حياتي السابقة ضربا من ضروب التجريب . لم تكن المرأة أم ساقين التي نعرفها . بل فكرة المرأة نفسها في ناموس الخلق . لقد كانت فارهة كالمعابد القديمة ، كمصبات الأنهار الخالدة . فارهة كثيراً وعلى غير طريقة البشر . إنه لشيء مؤسف أن لا ترحل حبيبتك إلى الأبد . ليس ثمة شيء على الاطلاق يرحل أو يبقى إلى الأبد .

تأمل المأمور وجه السنجك فوجده كأنحاء أفق فوق المياه . خلا قبل قليل من النوارس . الرجل كان يستغيث بالفعل . سأله المأمور :

- لماذا تركتها إذن ؟

السنجك كان لأول مرة يكتشف أن ساقية الدم التي بأعماقه هي ذاتها القلب . إذ أن المراسي تعلقت بألسنة الموج وكل مكان أضحى في عرض البحر . أجاب المأمور قائلاً :

- لقد كنت موهوماً أو قل أنني كنت فتياً ومتقداً . رياح الشباب تمحو القيامة عن وجه أيامي وتغريني بالخلود . مغروراً حسبت أنني لو ترفعت عليّ الأرض لمشيت على السماء . والآن أنا بلا مهمة . أكبر كل يوم ولا أتقدم نحو شيء . تماماً كما في شعر كمال :

تحلق فوقي النسور

وأنا أهرب من جثتي لجثتي

تدفقت عواطف المأمور القريبة من سطحه فقال للسنجك :

- كان عليك أن لا تخسرها.

- لسنا برجوازيين لنربح حبنا.

أخيرا عثر المأمور على مقولة تليق بالمتصوفة أضاف لها تقنية صوت مناسبة ثم قال :

- هكذا الدنيا نغضب فيها كالإبل ونعود لنرضى من جديد كالأطفال .

لم تأت إجابة السنجك كانتقال من درج إلى درج في الموضوع . ولكن كاستسلام تام للإنزلاق في منحدر الموضوع . فقد أجابه :

- لقد بلغت من اليأس حد أن أتلو على نفسي يومياً صلاة الجنازة الغائبة . الجنازة التي لن يدفنها إلا انهدام السماء عليها .

أطلق المأمور قهقهة لطيفة من شأنها بذر المعنويات الطيبة قبل أن يقول :

- قد يكون وراءك تأريخ مأساوي يستحق النشر ولكن لا تنسى يا رجل أنك موحد وأمامك الله .

تضجر السنجك من سوء فهم المأمور له . فأجابه بسخط بارد ومتوتر :

- افهمني يا لوح . نحن جميعا لا نعني عند هذه الحياة شيئا . ليس أمامنا إلا أن نحيا طالما أنها المهمة . نندفع فيها كمقذوف بندقية يفني مداه ويسقط كأي حجر لم يذق طعم التحليق يوما .

ضحك المأمور بمجاملة . ليس لأن السنجك صديقه ومن حقه أن يقول له يا لوح . ولكن لأن السنجك يعرف عن ميزانية السجن ما لا تعرفه الأوراق الرسمية والمسؤولون . ورغما عن ذلك فقد قال له بتعاطف حقيقي ولا يتكلف المواساة في شيء :

- الحياة أمامك ، لا تحزن يا رجل .

- لقد أصبحت خلفي . ذكرى وبعض ماضٍ تافه لا يفقه من حاضري شيئاً .

- لا زلت تتنفس والحياة لن تصبح خلفك إلا حين تموت .

تحرك السنجك إلى خارج المكتب ووقف عند الباب . هو نفسه عجب لتلك الاستفاثة التي انفجرت في أعماقه . صراخ انبعث منه بصوت أجنبي . ربما هزم قلبه أمام المجتمع ـ على صعيد الغلاظ ـ ولكن القلب يهزمه بينه وبين نفسه . عندما تخلو غرفته من الضوضاء وينقطع ظهور الأشباح في مرآته . ثم ينبعث ذلك الصوت الأمين والحقيقي . الصوت الذي ينشد الحياة ولا يأبه بالمبررات مهما كانت . أخذ يتأمل زوايا السجن . قانون الفوضى الكاملة في حد ذاتها نظام يعمل بشكل جيد .

الأوضاع هنا تختلف تماماً عمّا هو بعيد في أقاصي الريف . حيث الأرض تحت فيض النهر حيناً . وحيناً تحت وطء المحاريث . هناك لكل شيء دورة تمنحه المعنى . المرأة لها دورة تحيض أو تحمل فيها وكذلك إناث الأنعام . المواسم لها دورة تنجح أو تكسد فيها وكذلك الرجال . وحتى الأفكار والأشياء الدخيلة لها دورة تستوطن أو تطرد فيها إلى الأبد . دورة تعقل أي شيء إلى وتد النظام والمفهوم كما تعقل البهائم إلى وتد الحديد . وجالت التفاتة من السنجك إلى المساجين .

الأشخاص الذين تمت أحداث حياتهم في أزمان متفرقة داخل هذه الدنيا وخارجها . وظلت طافية على لجة الكون حتى وافتها هذه الدوامة . ففرقت فيها جميعاً محتضنة بعضها البعض . وفي ذات اللحظة والمكان .

أي لعنة هذه ؟ خسارة أن نعيش وخسارة أن نموت . الذي بالخارج لا يجد الدنيا كي يعيشها . وهؤلاء المساجين توغلوا في أفول بمميزات المكان .

لقد خرجوا من عمى الأرحام إلى ظلام الكون ودنيا لا تأبه بأحد . فليخرجوا من دبر إلى دبر . إي والله هذه مسؤولية من ؟

الفصل الثاني

- ما الذي تريده منا هذه المرأة ؟

- إنّ المرأة منذ أن فتقها الله من جنبة الرجل لا تريد منه سوى فحولته .

ضحك سانتينو بمرح مثابر فقد كان يوماً يستحق أن يتحالفا فيه ضد تلك المُعالِجة للنفس . ثم ردّ على الفليل قائلاً :

- ربما أنت هنا لتتخلى عن مثل هذه المفاهيم .

- المشكلة أن هذه المفاهيم عضوية فهي التي لن تتخلى عن أحد . أما عن شخصي فقد خلقني الله مرفعين نسوان . إن لمحت امرأة ترقرق عيناي بالمذي فلا أراها إلا كيابسة ذات أخدود مقدس للبكاء .

استرخى سانتينو على مقعده وقال له :

- المهم أنني سأستمتع بنقاشك معها .

- ياسلام ! ولكنها لم تأت بك إلى هنا من أجل المتعة . إنها تريد أن تجردك من لصوصيتك يا صديقي سانتينو .

- تلفت سانتينو قبل أن يقول :

- إذن بلاهة التساؤل عمّا تريده هذه المرأة لم تكن إلا جبن المواجهة . سانتينو لن يتخلى عن اللصوصية حتى تشفى كل قبور الموتى من الفقراء .

أضاف سانتينو وهو ينقل بصره بين مكونات ذلك المكتب المعقول :

- أتعتقد هذه المهرطقة أننا نولد كي نتفرج على الناس وهم يعيشون ؟ إن كانوا ينظرون إلينا كفائض بشر فسنوظف أنفسنا فيما يعود باللعنة على الجميع .

إنتقلت عدوى التجول بصرياً إلى الفليل أيضاً . ولكنه لم يلبث أن ثبت بصره وتركيزه على لوحة واضح جداً أنها لم تكتمل . وكانت تصور في كثير من الضباب فتاة تحمل في يدها واحداً من تلك الفوانيس القديمة . لفت الفليل سانتينو إلى اللوحة وقال باستغراق وانجذاب :

- يا للروعة . رائحة الرسم الذي لم يكتمل مثل رائحة الدخن النيء والفريك . تعني رائحة الأشياء وهي فكرة . هذه اللوحة أنا لا أراها كما تراها أنت لوحة معلقة على جدار .

ولكنني أجزم بأني أنا من يدفعها بقوة ما لتتضح على الجدار . الآن يتملكني تماماً إحساس أنني ماكينة سينما . إن هذا الفنان لصّ ذاكرتي . إنها مزاهر . لا زلت أذكرها . لقد كانت ذهبية اللون كنار القصب . وذات جسد عامر بمواهبه ومتبّل بمزاج الأفارقة . تحمل في يدها واحداً من تلك الفوانيس البائسة . التي تتكون من فتيلة وعلبة زيت لا غير .

كانت تريد وضعه في فتحة مربعة في الجدار . تستخدم كرف كما يمكنها أن تؤدي مهمة النافذة . شعرها الكثيف يطل على قفاها بعفوية لم يتوفر لها ترتيب دقيق لأسميه مسرحاً إلى الوراء . فلا زالت هنالك خصلات منه تتطاير على جبينها وخديها . تحركت نسمة هواء خفيفة جعلت ضوء الفانوس يتأرجح ، كنت أرى إتجاه الريح على وجهها . أشجار النيم التي تغطي مدخل البناية أخذت تتخلى عن أوراقها المصفرّة وتلقيها بكسل لتمر أمام تلك الفتحة . بعض الأوراق تكون واضحة لي وهي في طريقها إلى الأرض . وعندما تقاصد المكشوف من جسد الفتاة تختفي فجأة لدخولها في درجات لون تحقق لها الاستئناس ثم تبتلعها . وحين تتخطى تلك الأوراق جسد الفتاة تظهر للحظة خاطفة في الهالة التي يلقيها المصباح على الجزء الأعلى من الجدار ، أسفل تلك الفتحة ، ثم تنتحر بلا عودة في الظلام الذي يغطي أسفل الجدار .

كان وجه مزاهر يوزع الضوء على شقوق مختلفة في الجدار كلما تغير إتجاه الريح فتمتلئ تلك الشقوق بالرسم . وحين تسكن حركة الريح تتخذ الفتيلة وضعاً تضخ فيه ضوءها كخط مستقيم باتجاه السماء . ويكون شعرها قد ترك اضطرابه وعاد ليرسم ظلالاً متموجة على جبينها الذهبي . لقد كانت تبحث عن شيء ما . فعندما تخفض رأسها ناحية الفانوس يتسلط الضوء أكثر على أسفل وجهها ، وتغطي الظلال أعلى جبينها . فتظهر شفتاها كوردتين حمراوين . إزدادتا إحمراراً لتركيز الضوء عليهما . وهما ترتكزان على فك خمري يختفي باهتاً باهتاً في السمرة حتى يتلا شى في ظلام عنقها . وحين ترفع وجهها إلى أعلى تكثر الظلال وتدرجات اللون بإتقان إلهي حتى تصبح ملونة كجناح طائر . فإذا ما سكنت الريح يأخذ الفانوس تلك الألوان ويدفع طيوفها مد البصر .

أحياناً تشيح بيدها التي تحمل الفانوس إلى جنبتها وتميل به إلى الوراء قليلاً . فيشع النور من ورائها . مما يجعل أطرافها مشعة بلون سنبل ناضج . فتلوح ساحرة وذات مهابة كتمثال من معبد الأسد . وتبعاً لتلك التحويلة السريعة للفانوس يتموج اللهب في عدة

إتجاهات مما يجعل أطرافها في كل هزة للضوء تتردد بين السطوع والخفوت . وحين تستجيب أجزاؤها كلها لحركة الضوء يرتج تمثالها وكل معبد الأسد . ويتطلع أبادماك بزئيره من قلب الصحراء . كأن تاريخ النوبيين العظيم يريد أن يقد الحجر ويمد حضارته من جديد .

لقد جمع لونها بين إقتداره كلون وبين ذهنية مجموعة من عباقرة الرسم . فقد كان يعرف متى يكون حفياً بالظلال ومتى يكون شحيحاً معها . وكانت الريح من ورائه تمد الظل والضوء يتبعها في حركة دائبة . لقد صحت بأعلى صوتي : (الله للجمال . عندما تخلق الريح الظل ويضيف الضوء الحركة) . وهاهو فنان لا أعرفه قد قام بغزو زماني العقلي وبدأ رسم أروع ذكرياتي .

قطع سانتينو تأمله للّوحة ثم قال للفليل بهدوء :

- لا تعنيني إمرأة من الحلم فأنا أريد إمرأة من شيء أكيد .

ردّ عليه الفليل بطمام :

- أنتم رجال من قبضة يد فارغة ولا عجب أن تجاز القصص الروسية في الورش .

أطلق سانتينو ضحكة وقورة ثم تصنع لنبرته قليلاً من السفاهة وقال متسائلاً :

- ألم تطمع في شيء من مزاهر سوى تسجيلها في ذاكرتك ؟

- لقد طمعت في قبلة لا أكثر . ولكنها تأبت وقالت لي : (إن فمي ليس جيفه ليدخل فيه أي كلب فمه) .

قال سانتينو وكأن آخر عبارة سمعها من الفليل هي تلك التي يهاتر فيها الإشتراكيين :

- أنت تعلم أنني لست اشتراكي حرفياً . كما أن إيماني بالاشتراكية لا يعني موافقتي على حماقات الإشتراكيين .

تمطى الفليل بسفاهة أصيلة ثم أجابه :

- يحتاج الاشتراكيون لقرون كثيرة كي يفكروا بطريقتك يا سانتينو . كما أن كفري بحماقاتهم لا يعني كفري بالعدالة الاجتماعية .

أخذت يدا سانتينو الجنوبي تعبثان بما فوق المكتب وتتلمسان تلك الحاجيات بطريقة إحتقارية وهو يهمهم مع نفسه بصوت خافت بعض الشيء ولكنه مسموع :

- همم .. مجسم للكرة الارضية .. منحوت من القرع . لا بأس .. ذوقها تراثي . وهذه

غزلان .. منحوتة من الأبنوس . إنها فنون أويل .. يا لروعتها . لا بد أن التاجر الذي أتى بها إلى الشمال أخذها من صاحبها مقابل سروال .. سروال دمورية .. سروال لا يختلف عن حفاض ضرع الغنم في شيء . وهذه صورة لها مع فتى . ربما يستلف كل منهما الآخر كحبيب . وهذه .....

قطع سانتينو فجأة همهمته تلك وقال للفليل :

- إننا في نظرها مرضى ونعاني من تقيح أخلاقي لا بد أن نعالج منه .

ردّ عليه الفليل :

- أنا شخصياً سأوافقها على أن المرأة دواء إن تركتني أحدد طريقة الاستعمال .

- على العموم يمكنها أن تنقض بالطريقة التي تعجبها . الصاعقة تحفر قبرها قبل قبور الآخرين .

لكز الفليل صديقه سانتينو في بطنه ثم قال له مع ضحكة ماجنة :

- أنت دائما تهتم بالمنازلات والبطولة . لا تكن أبلها يا سانتينو . الفحولة أعظم مونديال بحوزة البطولات .

ثم أكمل الفليل حديثه بقراءة هذا المقطع من شعر كمال :

يا دبيب الروح

طير في الجسد ما ترك

نَسَي العرق

مشيته الطابور

وخلّي إيد القيف

من الموية تفك

دخلت سلامة إلى المكتب بلطف وألقت بمفتاح كان في يدها على مكتبها وألقت بالمرة على الفليل وسانتينو تحية مهذبة . وبعد أن انتقت لها جلسة مهذبة سألتهما على نحو استدراجي :

- ماذا تشربان ؟

وجّه إليها سانتينو نظرة غير مكترثة . أما الفليل فتوجه إليها كلياً وحملق فيها بعيون مرفعين إستوحش وحدة الجبل . بادر سانتينو بالإجابة :

- سأشكرك على القهوه .

لم يسمح الفليل بمرور فترة صمت يتعيّن عليه بعدها أن يطلب ماينا سبه فقد قال متعجلاً :

- ولو أنه يمكنك أن تكرميني بأي شيء تقع عليه يدك ولكن لا بد من عصير و .... رغيف أقرضه معه .

ضحكت سلامة وأمرت بما طلباه ثم قالت بمودة :

- لا أدري بأي طريق أبلغ تلك النقطة التي يمكن للمرء عندها أن يخلق حميمية حوار مع أحد سيعرفه لتوه .

أجاب الفليل فورياً على تساؤلها :

- ستتبع الحميمية عندما تنسي تماماً أمر تلك النقطة .

أضاف سانتينو :

- تذكر هذه النقطة يعني التكلف الذي لن يسمح بميلاد حميمية على الإطلاق .

ثم انغمس الرجلان في ضحك من النوع الذي يقصد منه تلطيف الكلام الذي سبقه . ولكن ضحكات سانتينو كانت قد مضمضت فمه من أي طعم لحديث حلو يمكن أن يوجد . أما ضحكات الفليل فقد جلجلت نحو بعد فاسق . فسانتينو يريد أن يتجاوزها رأسياً كعقل . والفليل يريد أن يستشرفها أفقياً كأنثى . بعد أن شاركتهما سلامة ذلك الضحك التلطيفي توقفت لتقول :

- إنني لا أجلس إليكما وأنا خالية من الشرور . ولكنني لا أصر أبداً على أن تكون الشرور طريقتي في الحياة .

عندما ذكرت سلامة كلمة الشرور تململ الفليل . وإن كان سانتينو قد ألغى عينيه وجلس محدقاً بعقله . استرسلت سلامة قائلة :

- إذا استهوت الإنسان شروره فذلك يعني أن مشكلته متفاقمة . فارتكاب الشرور درجة من درجات الإنحراف . أما الشعور بالرضا تجاهها فدرجة أكبر من أختها .

قاطعها سانتينو متسائلاً :

- وماذا لو كان ما تسميه بالشرور فلسفة عند صاحبه ؟

إبتسم الفليل . فهو يعرف أن سانتينو يسرق لأنه يهوى السرقة . ولأن أحداثاً كثيرة

أحراشية التعقيد إكتظ بها تاريخه الشخصي تُملي عليه ذلك . أما أن يتحدث سانتينو بلسان فيلسوف لص أو اشتراكي معدّل فهذه هواية أخرى لسانتينو . كلا الرجلين يفهم الآخر جيداً ورغماً عن ذلك يتناكفان حول شخصيتيهما المعلنتين للأغراب .

كل ما يمكن الجزم به أن سانتينو تخلى عن وثنية أجداده وفي حالة قطيعة مع الكنيسة بسبب القس . وأنه جاد في مطالبته بتوفير الحد الأدنى من الحقوق الإنسانية لكل فرد . كما أن تحقيق هذه المطالب لا دخل له في أن يترك سانتينو اللصوصية .

ردّت سلامة على سانتينو بقولها .

- مما لا شك فيه أنه كلما ازداد الشخص إيماناً بشرعية شروره كلما ازدادت أموره سوءاً . فأية خروج عن أعراف المجتمع يعد إنحرافا .

كان الحوار يتجه ناحية عرض البحر وسانتينو يؤم الشياطين لصلاة من أجل الفقراء لن تنتهي حتى بإنصافهم . قال لسلامة وهو يطرق على جنبة مكتبها بأصابعه طرقات خفيفة :

- ولكنني منحرف بالظروف لا بفيروس . فالمجتمع عندما يشبع ونحن جياع فهذا خروج عن عرف الإنسانية . وإن نحن سرقنا فهذا خروج عن عرف المجتمع الذي هو أصلاً منحرف وخارج عن عرف الإنسانية .

أرادت سلامة أن تمتص حماسة سانتينو . لذلك إنتقت لها نبرة أمومية ثم أجابته :

- إن الذين تقصدهم قِلّة يا سانتينو . وهم منحرفون أيضاً ويجب أن يعالجوا ويقوم سلوكهم . كما أن هنالك أثرياء شرفاء أخلصوا لهذه الحياة حتى أغنتهم . الناس تعمل وتكسب يا سانتينو والقانون يشرف عليهم ويحميهم . في رأيي أن الإشكال تربوي بخصوص الجميع .

زادت الرقعة التي تحتلها إبتسامة الفليل . إنها فرصة سانتينو ليستعرض ثقافته ويلص مصطلحات الاشتراكيين التي لو سمعها ماركس نفسه وهي يتحجج بها سانتينو لأصبح من أنصاره . أما سانتينو فلن يهمه من مناصرة ماركس له سوى محفظته . فالاشتراكيون في رأيه تمشدقوا بمشاكل الفقراء أكثر مما أوجدوا لها حلولاً. تطلع سانتينو إلى سلامة بوجه إحتلته أحاسيس كثيرة وبغيضة كأحاسيس الملاريا ثم قال :

- لماذا لا نعمل ؟ لماذا لا نكسب ؟ إن هنالك شيئاً يدعى قيود الفقر يا آنسة . القيود

التي لها جوع يتجاوز رجليك ليحز وجودك نفسه .

لفظ سانتينو كلمة يا آنسة بالطريقة التي يقول بها المذيعون مثل هذه الكلمات . وأكمل قائلاً :

- الذي أفهمه أنا أن تلك القِلة المنحرفة من البرجوازيين يجب أن تكون مع القلة المنحرفة من البلوتاريا . هنا ، في قميص الثعبان هذا ومن أجل العدالة . وإن افترضنا بلاهةً أن الإشكال تربوي فقط كما تزعمين . فالسؤال هو ... أيهما توفرت له سبل تربية من شأنها إصحاح الانسان ؟ البرجوازي الذي تثقف لدرجة الكفر بالحضارة . أم البلوتاري الأمي ؟ لقد تركتي الفيروس وراءك يا آنسة . إنها دعوة رخيصة للمصالحة مع البرجوازيين . لقد شبعوا وانفضت مائدتهم ونحن نرفض الدعوة للتجشئ هذه . فليس في معدتنا مايجعلنا قادرين على تلبيتها .

الناس في هذه البلاد ينطقون كلمة البروليتاريا ناقصة الأحرف وعلى هذا النحو كمحاولة لنقص الفضيحة . إذ أن دخول مثل هذه الكلمة إلى أرض المليون ميل وعشرات الأنهر فضيحة تستوجب الإختباء في دبر بهيمة . إنحشر الفليل في الحوار قائلاً :

- إن كل المصائب تهبط علينا من الفقر وهذا الذي يسمونه بالقانون . إن الأغنياء يتوارثون الدنيا والحياة . أما نحن السباريت فنتوارث الفقر والقانون . المؤسف أنهم ينشئون المحاكم والسجون كأنها يجب أن تنشأ . والأقبح من ذلك أنهم يسمونها بالمؤسسات التربوية . ومثلما يلدون أطفالهم للمدارس ويلقمون فقراء العمال لمداخن المصانع ، لايهدأ لهم بال إلا إذا أوجدوا مجرمين للمحاكم . فليصرفوا علينا مايصرفونه على هذه المؤسسات التافهة لينام الجميع في الهواء الطلق .

لم تهتم سلامة بما أضافه الفليل فقد قدرت أنه هو نفسه لا يهتم بإضافته تلك بقدر مايسعى لتحقيق غرض في نفسه . أما لهجة سانتينو الباحثة عن العدالة فواضح أنها تدعمها طاقات أخرى غير قضايا الفقر والإقتصاد . ومن المحتم أن لقضايا الجنوبيين حظ وافر من هذه الطاقات . لم تكن سلامة من النوع الذي يتعلم بالشرح . بل من النوع الذي يتعلم بمجرد الإنتباه لما يدور حوله . لم تكن تحتاج لمعلم ببغاء فهي تأخذ الدرس من فم الدرس مباشرة . لذلك تجاوزت الفليل ووجهت حديثها إلى سانتينو قائلة :

- يؤسفني أن رائحة الفقر تنبعث من رأسك وليس من أكواخ الفقراء . إن بكاءك ليس

بكاء طفل أخذت منه لعبته لنكون متأكدين من سكوته بمجرد إعادتها إليه . إن البكاء نفسه أصبح عندك لعبة يا سانتينو . لو كنت تتحجج بمثل كلامك هذا لأنك شيوعي فاسمح لي أن أقول لك بأنك رجل أثري منذ أن كان البنفسجي يرمز للحزن ، و.....

قاطعها الفليل بصورة مريبة :

- دعك من سانتينو فإن جسده هذا قد خلقوه من تراب مسروق . واللصوصية فيه مآل للتكوين . أقسم لك بأنه لو صام لشككت في أنه يريد أن يسرق شيئاً من الجوع . إن لي سؤالاً .....

قبل أن يسأل الفليل ردت له سلامة وقاحة أن يقاطعها متسائلة :

- هل كان سيتوفى سؤالك لو تركتني أكمل حديثي ؟

ردّ الفليل بخبث :

- بل كان سيلد نفسه بدون مشورتي كما حدث . لأنه زاد على التسعة أشهر بأسبوع .

أنصت الفليل قليلاً ليسمع صدى إجابته في عيني سلامة . ثم قال مخاطباً سانتينو بلمز :

- على كل حال اختصر حديثك معها يا سانتينو قبل أن يتوفى سؤالي .

لقد وجدها سانتينو فرصة . إذ حول الفليل الحوار إليه . فجذب أنفاسه بعمق ورفع يديه كظهر لجة عظيمة تطمح إلى أن تبتلع حلوق المرابين كلهم والضلال . ثم قال في كثير من الحماسة :

- الإشتراكيون يا سلامة لم يفعلوا سوى أن أوجدوا لغة مرتبة تقال بها مظالم الفقراء . أنا نفسي أرفض ذلك الترتيب الذي فرضوه على الناس وحاكموا من خلاله الدنيا . ولكني لا أرفض اللغة في حد ذاتها . لأن هذه اللغة لن تتغير إن لم نر قفا آخر ثري فاحش يغادر هذه الارض . إنّ كفري بديكتاتورية البلوتاريا لن يجعل مني مؤمناً بآلية السوق . إنّ التسليم بنجاح آلية السوق كقاضي عادل يشبه النجاح الذي سيحققه من يريد أن يصيد السمك بالحجارة . فليعلم المهرطقون جميعهم أن أسواق الدنيا كلها ذات نوايا بغيضة . وأنه لا يوجد على ظهر الارض سوق عفوي . أوافقك على أن هذا الكلام قديم فعلاً ولكن لا توجد معالجة حديثة حتى تاريخ اليوم . نعم إنها ذات الجثة ولكن نحن لم ندفنها ورائحتها إلى الآن تنبعث وتلوث الجو . وإن كانت رأسمالية الآلة البخارية قد تسببت في

إنتاج الفكر الشيوعي الذي حقدنا عليه حتى مات . فإن رأسمالية الكمبيوتر في طريقها لأن تنتج لنا فكراً يجعلنا نتوسل للموت كي يأخذنا . إن المطالبة بالحقوق الإنسانية ليست تاريخية لتكون ثأراً . وإنما آنية ومستقبلية لتكون عدالة .

أخذ الفليل رشفة من عصير الفراولة الذي قدم له ودس لسانه في الحديث بعد سكوت سانتينو مباشرة قبل أن تسبقه سلامة وسألها بجدية مصطنعة :

- ما رأي سلامة كمعالجة نفس في الخمر ؟

أدركت سلامة أن هذه الطريقة في الحوار ستجعل منها متلقية فقط لمحاضرات سانتينو وتفاهات الفليل . ولكن لم يكن أمامها حل عدا أن ترد على الفليل . الذي كان إلحاحه على أن يخلق حواراً معها كإلحاح النيل في أن يغير ملوحة البحر الأبيض المتوسط . اختارت سلامة أن تجيب الفليل بعبوءة سؤاله نفسها . قالت له بنبرة قاسية :

- سأجيبك بعد أن أسمع رأيك أنت فيها يا الرضي التوم .

تعمدت سلامة أن تخاطب الفليل باسمه الرسمي ـ الرضي التوم ـ لأنها خشيت أن يكون لقب الفليل هذا مستوحى من سلوكياته . أجابها الفليل :

- إنّ وجودي في هذا المكان شرح وافٍ لرأي في المغيبات عموماً والجنس .

تركهما سانتينو وكل واحد منهما يتحفظ تجاه ذلك السؤال ويلقيه إلى الآخر كأصابع الدنميت التي يحرص الكل على أن لا تبقى بين يديه . وعاد إلى همهمته السابقة مع نفسه بصوت خافت بعض الشيء بعد أن أسند وجهه إلى مكتب سلامة :

- همم .. سانتينو جوبيك ... جوبيك الاسطورة التي ولدت جوبا . إن مدننا تأتي من حمى الاساطير .. نحن أشقاء الغابة وسليلو البرك .. ولكن ماذا يعني هذا الكلام ؟ صيحات أفارقة ليست شهية ولن تهضمها إلا بطن أغانيهم ... كل مايهم الفليل من أمر هذه المرأة ما يمكن أن يفعله الرجل بالأنثى منها . لم يشعر بالغزو الذي تنوي أن تقوم به تحت مزاعم علاج النفس ... إنه كجدودي .. لا يبخلون على دجاجة بركض يوم كامل لقبضها . لقد كانوا حامين كطبولهم وفارغين مثلها ... عندما اقترب منهم الرجل الأبيض ظنوا بأنه يريد أن يرقص معهم رقصة المرفعين . وفاتهم أنه هو المرفعين ، الذي مكثوا ببطون الغابات منذ بداية التاريخ يعدون الرماح لمجيئه ... استجدوا أرواح الماجدين من أسلافهم المطر من أجله ، الغريب الذي جعل أبناء النيل يعفون الطرائد ويصنعون

الرماح من أجل رقابهم .. استجدوا له المطر .. وكان الخريف الذي بال عليهم . والشماليون .. آه .. الزبير باشا أعتق قوافل الرقيق من قدمائنا .. هذا صحيح .. ولكن ليس ليكونوا أحراراً ، بل ليكونوا الباشبزق . أنا لا أحقد على أحد ولكني أحقد على الظلم ... أنا أرجو الخير للسودان كله لا لجغرافية ضيقة . إن هنالك معادلة صعبة يجب أن تخلق على الأرض وبدون وصاية المطارنة والأعراق ... من أجل الشمال والجنوب .. من أجلنا . معادلة وسط . كالتي نحتاجها أيضاً بين الإشتراكية والرأسمالية ... كل الامور تتوقف على معادلة وسط صعبة . الذي يقتلنا هو الغلو .. الغلو.. اللعنة على الغلو . لكم أنت رائع يا بشرى محمود إذ تنسى ذاتك ومجهول الدنيا وتبحث عن مخاض عظيم لكل ماهو جميل . أشعارك هذه تملؤنا بالإنسان وتنشرنا من لحد الأنانية :

الألم نوع من ثمار الحس

وبعض من عطائك

طول حتى تناول

بعضاً من أعاليك السماء

ولكنك مشدود

إلى قرارتك الإنسان

إن تنجو من قدر تكوينك

فإلى مايوازيه في الطبيعة من قدر

إني إن صحت لنفسي

خرج صداى للآخر

بقدر ما تسع الأرض البور الموت

يمكنها أن تسع الحياة

عندما انتبه سانتينو كان الفليل يفتي في الخمر بقوله :

- إنها تمنحني إلهاماً عظيماً . كالذي أجده عندما أفرغ من إمرأة . أو ربما هي لا تمنحني شيئاً من عندها وإنما تقوم بتحميضي . فهى بذا تطالعني بصور جميلة من فيلم بداخلي ولا يتضح بإمكاناتي الخاصة . دورتي الدموية حين تخالطها الخمر تذهب بالدم إلى أعلى فقط .

اعتدل سانتيز في جلسته ليسمع ما ستقوله سلامة ومحاولاً أن يلجم في نفسه كل ما جاش من الرطانات الإفريقية كي لا تفهمه إبنة برجوازي الشماليين تلك . قالت سلامة للفليل :

- باختصار يا الرضي التوم . إدمان الخمر يهلك الجسد بحسه وأعضائه . والإستمرار في ذلك ينتهي بكوارث نفسية بشعة .

أجابها الفليل وهو يحرك يديه فتتقافز من حوله الشبهات بوضوح . كقطط الساحر وديوكه وسحاليه وكل هلاويس الحاوي التي يخرجها من أكمامه . قال :

- الخمر عروسة ليلها ولكن الجنس قانون الحياة الأول .

ترك الفليل موضوع الخمر فهو ليس من هواة إقناع أحد بفكرة ما . وكل مايهمه توريط الحوار في رماله المتحركة . إنه رجل متوزع بين مجرى للدم ومجرى للشهوة . أكمل قائلا :

- عندما أمد جذوري لملح المرأة أشعر بأنني أورق كأنما استيقظ في أعماقي نهر . إنها المرأة . يخلقنا الخالق ولكنها تضيف لنا الحياة .

تفقد الفليل آثار مخدره على وجهها . فلاحت له سلامة أعجمية الأنوثة . وعيناها كمقصورتين على نهر مشاغب . إمرأة كالبحر لا تحصدها الرياح . طمأن الفليل نفسه بأنه لم ينزل إلى الأعماق بعد . والذي يقف على الضفة ويتساءل عن عمق النهر لن يجيبه السمك ولو وقف ألف عام . ومضى صوت الفليل يؤذن بالضلال في تلك الحارة الصالحة .

أضاف :

- إن الله حين ابتكر حواء ابتكر ماهو أكثر من التناسل . وأطلق الإنسان فيما هو أوسع من اللذة . إن الكلح لحظة إشراق غامضة . تندمج فيها روحانية الإشتهاء بوثنية الغرائز .

لمعت إرتعاشة حياء خاطفة في عيني سلامة ولكنها لم تغب عن أعين الرجلين . الفليل يسمي تلك الإلتماعة كالون المرأة الذي يبرق لك ويختفي بعد أن يمليك عدد سنن المفتاح التي تحتاجها لتفتح عمر المرأة من غير باب الزمن . لأن باب الزمن يفتح من جهة الميلاد التي تقود في نهاية الأمر إلى الوفاة لا محالة . والفليل يريد أن يبدأ الحياة من حيث لا تنتهي بالموت . ردت سلامة وهي تلملم بقايا إرتعاشتها الخاطفة . فبالرغم من سرعة إنطفائها كانت قد تركت بقايا يلملمها الإنسان . تساءلت سلامة بعاطفة غريبة :

- ماهذا الكلام يا الرضي ؟

سانتينو فسر تلك العاطفة الغريبة بأنها غضب أنثوي يمتازن به بنات الشمال فقط . أما الفليل فقد كان متأكداً من أن سلامة بدأت تتأمل نفسها كامرأة مع التأكيد على وقف التنفيذ . وأن أرجاء المرأة فيها أخذت تتسع وقريباً سيطالب إنسانها برجل يمكنه أن يفعل شيئاً . لذلك فقد أجابها بلهجة تطوعية :

- إنها الحقيقة في أتفه لا معقوليتها .

أجابته سلامة بلهجة الذي غفر لك زلة :

- أنا أقصد تلك الكلمة الشوارعية .

وبعد أن مزجت سلامة لهجة الغفران بضحكة لسنا من هذا الصنف من النساء ، أضافت :

- عليك أن تتصرف مع لسانك وإلا تصرفت فيه بالبتر .

الفليل يوافقها على أن كلمة الكلح الواحدة هي بالفعل كلام . ولذلك فقد أجابها بصدد أنها شوارعية قائلاً :

- كلمة النكاح أو الكلح التي هي إخراج بيئي لها . كلتاهما تعنيان رجلا عاريا على صدر إمرأة عارية وبينهما مسرى للعروج في رقعة الإنسان . فما الذي نزع عن لفظة الكلح الأدب ؟ ومن أين أتت كلمة النكاح باللياقة ؟ طالما أنهما واحدتا المحتوى .

سلامة لم تبتل حتى الآن ولكن موقفها ليس بأفضل من موقف جزيرة . الوحل يحاصرها وأعلام القراصنة . لقد توسطت تلك المصيبة ولا بد أن تتأذى ولو من سماع غناء القراصنة المُغوي والمخمور . تدخل سانتينو لصالح سلامة بطريقة تبدو محاولة لتمليكها إحساساً بالهزيمة أكثر من كونها مناصرة . قال :

- إن مثل هذا الكلام يجرح المرأة يا الفليل .

ولما كان الفليل يفتش عن عمق النهر فلم يتردد في قول :

- هو كذلك ولكني أعرف أين يجرحهن .

أبرقت عينا سلامة من جديد واحتفظتا بلمعانهما كمنجمين من الفسفور وسقط الجميع في دوامة تبتلع وجودها نفسه قبل الآخرين . تأملات سلامة لنفسها كامرأة مع وقف التنفيذ تجاوزت الإحساس بالخوف من الضياع . إلى الإحساس بأن هنالك أشياء بدأت تفقد بالفعل كدرب السفن في اللجة . فهذا الرجل ملهم في تهتكه ويستطيع أن يضع

لسانه على مواطن للّغة لا يمكن الرد عليها من القواميس .

سانتينو خانته واقعية الإشتراكيين المزعومة . وصار كشخص خبزوه من عجينة سيناريو لتوه . بل ترك ضلاله في تلك اللحظة . حيث وجد أن رب يسوع جلي لا يشربه ليل ولا غيبة . وعندما تحسس أمه وأنطوانيت وساندرا كمنابع للصلاة في قلبه . لام الكجور الإفريقي بقوله : (لِم قلب واحد لصلوات كثيرة) .

الفليل لم يجد إحتياجه المعتاد للخمر . وإن كان في السابق يجده كسائر إحتياجاته التي يجد لها عضواً ملموساً في جسده . فقد رأى وبدون خمر : الخضرة الداكنة تغطي فراغات الصخور وتقتفي أثر المطر قطرة قطرة حتى تغيب في منحنى الجبل . وما تحت التاكا سهول تنبجس منها عيون الموسيقى . والأشجار لا تأخذ في خروجها من زمن أكثر مما تأخذه للخروج في الرسم من بين يديّ فنان عبقري . قال في نفسه حينما رآها ساهمة : (المرأة أشرس ماتكون حينما تضع السلاح . هكذا يريدك الله يا امرأة . بعيدة عن الحروب . لا داعي لأي سلاح . فالكون قد خلق من أجلك ومنهزماً أمامك) .

وخرجوا جميعاً بعد ذلك من تلك الدوامة كهاربين من بلادهم تحت ظروف قاهرة ومتعجلة . ما مكنتهم من أن يحملوا معهم إلا أحزن أغانيها . لاغرابة حيث ينتهي النهر تترمل الأرض ويعلوها السراب .

سلامة خرجت لدنيا الرخام والإنسان المزايكو . سانتينو خرج لمخيمات الحليب المجفف والإنسان المجفف . والفليل خرج لأحلامه بالأرض التي يتوفر فيها الجنس لدرجة الموت بتخمته . أرض يومها من سرمد اللذة . لا تشرق فيها شمس ولا تغرب .

وصعدت من جديد صيحات الحرب في الأفق كالدخان .

« لن نسلم بنادقنا إلا لوحل البرك الذي سيدفننا معاً ، نحن وفارغ الذخيرة »

وعبارة أخرى لمحارب عجوز :

« قاتلوا يا أبنائي المقدسين كي تنشطوا الحياة في عروقكم »

الفليل أول من أطلق الزئير لأنه كان الصيحة الأولى لتقسيم البرية . قال مستغلاً ذلك الإنجذاب الجماعي :

– ها نحن جميعاً نسير كجيش من الكائنات المنوية . نخلق الأرض حيث نضع أقدامنا .

سانتينو رحل بعيداً . تاركاً في أعقابه مجرى ميت . كمجرى نهر الجور حين تختطفه

أوائل الصيف . فرّ إلى أشعار صديقه بشرى محمود . تمتم بهذا المقطع :

حين يكسر الموج مجدافي

ينقل ضراوة أذرعي للبحر مباشرة

ثأري صديقي

والبكاء عندي من جنس الزنا

ثم أعقبه بهذه الهمهمه التي أطلقها بصوت ينحشر إلى الأعماق كالجب :

– همم .. الذي حوله الفراغ يتعلم كيف يلمسه . إنّا ابتدعنا لمدن الجنوب أسماءً فلا تلتفت حين ننادي إلا أبشع ذكرياتنا فيها ... لا تفارقني عفونة مستشفى واو للولادات ووفيات الجرحى . الرؤوس السوداء الصغيرة .. رؤوس إفريقية تماماً وكالباذنجان ، وكلها لرؤساء قادمين . لقد خطر لي حينها أنه لا يبدو مهماً أن يكتبوا مستشفى لِسَل الكائنات الإفريقية الصلعاء أو الإنقلابات ... فالأمهات في إفريقيا تعودن على ولادة المليشيات المشبوهة . أمهات يحضن الموت كأطفال لهن .

لقد صرنا مقسمين بين رجل الحقد في أعماقه كالصدأ . يحقد ويتآكل من جراء حقده . حتى يتكوم الحقد والتراب بدلاً عنه ... وبين رجل مريض يؤمن بأن متعة الإحباط في الدنيا تفوق متعة تفاهاتنا التي نسميها لحظات السعادة والسلام . صرنا كالأشقياء على أرض القيامة .. أينما نحفر ينبع الجحيم ... أو ربما يا أقدار نحن نحتاج لكل هذا العذاب كي نكون أفارقة حقيقيين . وإن كان الفقر مَن يحفر المستنقعات فلابد أننا مَنْ يأتي بالبعوض .

هنالك رجل يدعونه شيطان مكة يقاسمهم مغبة العيش في هذا المكان . وهو يؤمن بأن التفكير في أمور الدنيا كلها ينتهي بالمال . تذكره سانتينو فازداد بؤسه حين اكتشف أنه خرج من تأملاته بحكمة ولم يخرج بدولار . لم يحتج لقناعته بأن جرحه كفنارة تومض بالألم كيما تستدل عليه المواجع . عاد إلى سلامة والفليل من جديد وإبداع بولس في نفسه بعض سراب .

سلامة عادت كقارب نفذ من بين أحشاء شلال أثناء العاصفة . فلم يتبق منه إلا الذي استعصى على مضغ الصخور وتيارات المياه والهواء . أي ماهو غير قابل للتحطم أبداً . تأففت من طول إنتظارها لفرصة تكلم . كالذى يحدث من تأفف أثناء إنتظار الدور في

مراحيض السوق .

قالت مخاطبة الفليل :

- بهذه الطريقة لن تزهر في رأسك إمرأة واحدة . إن المرأة ليست مفاصلة لرجال يراهنون على الفحولة . وإنما هي رهان السر نفسه الذي يجعلها موضوع مراهنة للأبد . وغيب المرأة لن يكون أبداً بحيرة الجنس التي تقبع فيها. طالما أن الله يتمجد بأنه بديع .....

باغت الفليل طول وقوف ملامحه على وجهه بلا مهمة . فضاءلها حتى صارت ليست كافية لتمييزه عن الآخرين . أصبحت كأنها موضوعة في خامها الأولي . إن إبتعد عنك قليلاً فلن يكون أحداً بعينه . ولو إقترب منك قليلاً فيمكنه أن يكون أي أحد . أهمل الرضي التوم حديث سلامة وأخذ يتابع حركاتها وهي تتحدث . لن تكون حواء بائعة الشاي أطمع منه . وحواء المذكوره هذه تخلص أذناها حقهما من أسرار الزبائن قبل أن تخلص اليدان حقهما من نقودهم . في كل إتجاه تستفيد . وأينما جرّت ذيلها حرثت . ثم أخذ الفليل يهمهم مع نفسه بصوت يشبه تلك الأصوات التي تبعثها أحداث المخاض :

- حَيّ ... لو أجدها لليلة واحدة فقط .. لا ، لا .. إمرأة لليلة واحدة فقط لا بد أن يقسو عليها الرجل .. لن يكون بمقدوره أن يتحاشى التفكير في غد الحرمان . هذه الفتاة لن توصد قلبها وقد أوقده الإله من زيت العاصفة ... كيف لها أن تتحسس نهديها في الظلام ولا تجدهما كقرنين يتوقان لنطح وحشة الليل والرقاد الوحيد . حَيّ ... لو تزيأت بعريها مع الزهيد الذي يبقي عليه من الملابس ، وأضافت لذلك المكياج الرباني أجمل ماعندها من إبتسامة نهمة ، ثم دفعت جسدها إلى أقصى مكان يمكن أن يوجد فيه القفا واشتهتني .. حَيّ .

حَيّ ، ذات الصرخة التي تشعل غرف الصوفي الباطنة . الفليل يتأوه بها مستلذاً غيب ذات حاضرة . أما إن أطلقها مكاشفي النوراني المتصوف فلِكيّ يستلذ بها حضور ذات غائبة . الكل موصول بالغيب ومقطوع . ويظل الغيب بلدة الإله البعيدة . لقد كان إبكار يوم مراهق . الأحداث فيه لم تجر في تأريخ معين يمكن مراجعته . وإنما في ضجيج أجنحة طيور راحلة . نارٌ ما تحشر أنحاء ذلك اليوم نحو قيامة ليس من شأنها العقاب والثواب . قيامة من أجل توزيع حياة جديدة لا غير .

عند هذه اللحظة بالذات وبمحض الإرادة الخفية . قُدّر للفليل أن يقف على شاطئ قوة الحياة . وهما يقفان على شاطئ نجع الأرض . وشخير العاصفة يسرق من انتظار كل الشواطئ شخير السفن .

حين ترك الفليل متابعة مجرى حديث سلامة ليتابع الحديث نفسه ، كانت سلامة تقرأ هذا المقطع لبشرى محمود كمدافعة عن المرأة :

لك أنتِ الإنسان

لا لرحيقك الأنثى

أراولة ...

آخر أقاليم الحبيبة الإستوائية

ودكاكين المطره للعشب الوجيه

ساعة تحتقن كل الشوارع

ببولها الشرطة

وتشتبه .. في الغيمه ، في الحب النزيه

ساعة ينتهي ، الخائف من عرق التواريب

ويرقد جثة قطار فى نفق

والسافنا الفقيرة في دم الحبيب

لم يدر الفليل كيف انتهت سلامة إلى ذلك المقطع الشعري . ولكن هكذا أمور الدنيا كلها . تنتهى عند مثواها أحياناً . وأحياناً بعيداً عن بذرتها وقريبا من الثمر .

كان لا بد من فترة صمت . فلن يتلو الشعر سوى صداه . لقد انفتحت الأفواه الثلاثة على جهة غير جهة الكلام . سيطر عليها إنبهار لسكوته دوي كصوت التهشم عند منبت الهاوية . هناك حيث للسكون الذي يلي قرقعة النهاية أكبر ما في الوجود من صدى مكتوم .

سألتهما سلامة بغتة :

- ماذا تشربان ؟ لقد تحدثنا كثيراً .

ربما خطربال سانتينو أن الفليل سيختار أن يتم إكرامه على طريقة قبائل الجبال القديمة . أي أنه سيطلب بكارة ومجرى ضيق لوحل إبن آدم . ولكنه أجاب بكل إحتشام لا يشبهه :

- ذات العصير .

ربما الفليل مدهوش لأن طلباته تجاب كما لو أنه في الجنة . إذ أنك في هذا المكان إن لم تجد أحد الناس ليسيئك فسيتكرم الشيطان ويسيئك بنفسه . شربوا جميعاً هذه المرة العصير . لأن العطش كان قد اقتسم مع الحلق مكانه . السكوت كان مشروباً آخراً أثناء تناول العصير . صمتوا كأنما كانوا أدوات للحوار الذي فرغ منهم . فألقاهم بعد ذلك نافدين ولا يربطهم بعالم المخلوقات الناطقة إلا عجزهم عن النطق . استغلت سلامة ذلك الهدوء المريب وأدخلت يدها في درج مكتبها الموارب لتحول بسرية تامة شريط الكاسيت إلى جانبه الآخر . ثم أخرجت سلامة منديلا أبيض اللون وطوحت به كراية بيضاء قبل أن تفرده وتمسح به وجهها . تغامز الرجلان ثم اندفعا في ضحك مشبوه ومبالغ فيه . لم تفهم سلامة شيئاً ولم تسأل يومها . فقد عدته نوعاً من حرب الأعصاب . ألقت عليهما نظرة تنهد لها المراوغة في عيون مَنْ تقع عليه . قالت لهما في ضربة حاسمة ولإنعكاسات الأشياء التي من حولها في عينيها تمام أبعادها الثلاثة :

- جميل . لقد كنتما تبرران لسلوك تضعه تشخيصاتنا ضمن قوائم الأمراض . أنا لا أعتبر هذه التبريرات سوى أنها المقاومة الطبيعية التي تبديها الحالة إزاء المعالج . يمكن الجزم بأن هنالك إعتراف على نحو ما بالمرض .

صمتت سلامة لبرهة ثم أضافت وللإنتصار في حديثها كل النبرة :

- على كل حال الهدف من هذه الجلسة هو التعارف .

ربما لن تزيد حسرة الفليل أكثر من إضطراره لتصديق هذه المقولة للحظة : (البحث عن إمرأة جميلة أسهل منه الرضا بالقبيحة) . أو ربما هو تضايق من إستخدام لفظة الحالة بدلاً عن لقبه .

ولكن سانتينو كان استياءه قد قذف به إلى آخر عمره . إن حولت اليه بصرك فستراه كرجل تسلقته الشيخوخة حتى نخاعه . فقد كست وجهه أخاديد عميقة لو سقط فيها نهر القاش نفسه لغرق واستراح الناس من شره . عيناه أصبحتا كبذور إنتهت مدة صلاحيتها . وأنفه مخدش كأن من يتولى تنظيفه الغربان .

لقد لاح مجمل الذي تبقى من ملامحه عند تلك السن كمعالم أرض خلوية في الليل . اتضحت تحت ضياء برق خاطف . الأشياء عليها شبحية الوجود ويظلها سقف ثلجي .

ذلك كان لثواني . البرق اختفى كما هو برق . ونبع إثره صوت سانتينو كما ينبع الرعد من جوف ظلمة الخلاء . هادراً قال لها سانتينو :

– إن الذي تقولينه مجرد إشتباه . وعلم النفس لا يزال معلقاً بين التأملات الشخصية وفضلات الطب .

ولكن سانتينو من المؤمنين بجدوى علم النفس . كما أنه يحلم بمحاصرة د. بدوي خليل الذي يحمل لعنته في أواني ملساء ويتجول بها . ربما هذا ماجعل سانتينو يلقي عبارته تلك كدرع أمام سلامة وليس ككبسولة قرنيت .

الفليل سيتمنى بكل جارحة فيه يمكنها التمني أن يكون علم النفس مجرد تأملات شخصية . فبذلك لن يحرمه القدر من مجرد التوهم بأنه عالم نفس موهوب ولكن لم يحن أوانه بعد . أما فضلات الطب فسيوكل أمرها إلى الذين بإمكانهم أن يلتهموا موسوعات الطب المنفرة بكل تلذذ . ليتجشأوا بعدها أكاديميات طب كاملة .

أجابت سلامة سانتينو قائلة وبمكايدة :

– لم يربح جوادك هنا يا سانتينو . سنفترق في جلسة التعارف هذه بكل خير . كما أن أرض السباق ليس من قدرها أن تطوى بعد إنتهاء أي جولة مهما كانت .

تقرّح ظهر سانتينو فوخز مهماز سلامة كان في ظهره هو لا في ظهر الجواد . لقد أركبها ظهره وركض لصالحها . لعن سانتينو خبث سلامة بكلمة إفريقية صعبة النطق . تستنفد كل ما في الفم من لعاب . ضغط على جفاف شفتيه بأسنان بيضاء كندف الثلج . إن تحدث صاحبها عن قنوط الأفارقة فقطعاً ستلمسها للتأكد من عدم أيلولتها لنمر . ويله ، إن دافع عن نفسه بات في موقف المتهم . وإن كفّ ثبتت عليه التهمة . نضج سلامة يريد أن يقتل فيه شرى الأفارقة . لذلك تدلت همهمته كدلاء تبحث عن الماء في قعر بئر يبعد عن سطحها بمسافة طولها كأن السطح لا يوجد :

– همم ... قدري أنني معلق بين السماء والأرض .. تخبط يداي السحاب فيرن من فراغه كأجراس الكنائس . ورجلاي تخددان البحر لبطل كاريزمي لن يأتي ... وإن أتى فلن يدخل رجليه في البحر حتى لو صار جنة عنب . لا يهم ، فلتلعق الأمور مؤخرتها . لن أملّ وقوفي على هذا الشاطئ وحيداً ... هذا الشاطئ ليس لملهم من معارف الغيبيين . إنه لمحارب في أكمل انتمائه للأرض ... زنجي أم عربي لا يهم . المهم أن تنتخبه أحراش

إفريقيا .. وتنبته أمطارها بطينها وروثها وكل رائحة العبيد . من أجل بلاد ترقد أمام الشمس وخلف الحقول ... أقصاها مذهب ، وأدناها مخضر ... أحرج سانتينو أمنيته حينما تساءل : (مذهب ؟ كيف ؟ والكل ترف في رأسه الجراثيم ... مخضر ؟ كيف ؟ والزحف الصحراوي قد جرد الأرض من إخضرارها وصار يحلم بما تبقى من شعر على صلع علماء البيئة ... كيف ؟ ومجاعاتنا تميزت بأنها لا تخرج من بطون إلا لتدخل بطوناً أخرى . هيه ، يبدو أنه على الإفريقي أن ينام في عيون حبيبته لترى كم هي سعيدة في أحلامه) .

كفّ سانتينو لأن نهر همهمته مشرف على غابة مدفنة الجذوع فيها بمقاس أرجل الموتى . وأيضاً لأن موقفه يفرض عليه إثبات أنه وجد إجابة يدحر بها إدعاء سلامة بأنهم سيفترقون بكل خير . ولكن يا للمصادفة فقد قادته هذه الهمهمه لإجابة خرجت كالكحة . بتلقائية مباغتة ويصعب مقاومتها . قال لسلامة :

- عدم التفاهم بين الأطراف لا يفترق الناس عنده بخير أبداً . وهذا ما يؤكده الآن واقع العالم كله .

أراد الفليل تشجير الحوار بالذى يشتهيه من فاكهة . فصبار سانتينو لا يرحب بالمؤخرات . إنتصبت عيناه باتجاه لوحة النور بين يديّ الجميلة ـ هكذا أسماها فيما بعد ـ ثم قال لسلامة :

- لا بد أن يكون هذا الفنان طيب جداً ليمنحك لوحة لم تكتمل .

لم يعطها الفليل فرصة للإجابة . نفس طريقة قبائل البجة في الصيد . الحربة الأولى مع صوت الريح . لتضخيم الصياد في رأس الطريدة . والحربة الثانية لتغرب رجلا الطريدة في الوحل . لإطلاق الحربة الثانية تقوس الفليل ناحية الصورة التي تضم سلامة مع رجل مجهول في حضن واحد . ثم قال لها وفي باله أنه قبيح كالعورة :

- ياله من وسيم .

ثم أضاف كلمة أخرى فاحشة . فطوحت سلامة كقارب مهدود القوى . ثم تنحنحت مطلقةً لأصوات مبهمة . كتساقط أشياء من على الرفوف في نهاية مخزن طويل ومظلم . ربما تضخم الصياد في رأس صديقه سانتينو . ليقدر أن الطريدة شارفت على الإنبلاع في الوحل . ولكن الفليل لعن حرابه لأنه فهم أن الأمر أبعد من رمية كلمة . فالخطأ في تقدير

أمور النساء بالنسبة للفليل يقع مرة واحدة . أما بالنسبة لسانتينو فيقع كلما سنحت الفرصة .

يبدو أن الفليل قد أيقظ في سلامة شفق ذكريات غاربة مما جعلها ترد عليه قائلة وبكلمات باهته :

- إنه أخي وقد مات . وهذه اللوحة آخر عمل كان بين يديه . لقد ألمّ به مرض السكر فأرسله إلى القبر على أقساط . فقد أجريت له عمليات بتر كثيرة ومحزنة . وفي يوم جمعة مبارك إستراحت شفرات الجراحين . وكفت الحياة عن تشبثها به وتركته يرحل دفعة واحدة .

واضح أن البرود التافه والكلمات القاسية التي روت بهما سلامة حادثة شقيقها يعبران عن أعمق الإصابة والحزن . فالبرود التافه والكلمات القاسية هما فقط حيلة الإنسان تجاه الموت . فربما يغيظانه . ولكنهم أغاظوه بالفعل عندما تحدثوا عن الفن . أغاظوه بكونه مناسبة عادية كالختانة والعقيقة ولكنها تأتي متأخرة بعض الشيء . قال الفليل لسلامة كأنه يعزيها :

- الموت وحده الذي يمنح اللوحات التي لم تكتمل .

غطت حماسة سلامة حزنها وهي تقول :

- الريشة لن تكمل اللوحة ولو استنفد فيها الفنان أعمار النجوم . أعين الذين يتعبدون بالفن وحدها التي تقوم بذلك .

قال الفليل بكل تلقائية وشرف :

- إنني مغرم بالرسم . وحينما آخذ نفساً عميقاً أثناء تأملي له . فإنني لا أمد ذلك الكائن الحي بالأوكسجين . كما هو مكتوب في كراسة العلوم . بل أهوّي مزماراً مسحوراً يسلبني هيئة الطين وتقودني أنغامه إلى ملكوت الأسرار .

تحدثوا عن الفنانين في بلاد أخرى . رامبرانت ودقته التي تحشر الأشكال في هلامها النفسي . مونيه ومجاعته لأن يلون سلوك الأشياء . موندريان الذي يكافح دائماً من أجل وضع ريشته على روح الأشياء التي تجعلها تنبض . غرباً ضربوا حتى الشمس . وشرقاً ساروا حتى المغيب . ألم يخرجوا كأشخاص هاربين من بلادهم تحت ظروف قاهرة ومتعجلة ما مكنتهم من أن يحملوا معهم إلا أحزن أغانيها ؟

ثم عادوا إلى بلادهم وأغاني الفرح فيهم أجنبية الملامح . عادوا ليتحدثوا عن موت الفنان الذي جرّهم إلى هذا الحديث . وأيضاً تحدثوا عن صديقيه . صبري فنان البورتريه الخيالي . الذي استطاع أن يطوع الألوان والخطوط لترصد الملامح الكيانية المميزة للشخص . بعيداً عن توظيف محتويات الوجه ذات الدلالات المزاجية القاصرة . فيلسوف الريشة الذي منطق اللون . وأيضاً شاعر الريشة الذي قَفّى الأعين وملكة الرسم فيه . وكيف قامت إحدى الجماعات المتطرفة بإحراق معرضه الفني بكلية الفنون . ثم كيف اندفن صبري في الريف وانحسرت رجلاه عن دنيا الرسم . وأبانك النحات ابن النوبة السود . نوبة الجبال . الذي أبلغ الطين مرحلة القشعريرة وحال الفقر بينه وبين انتشال الإنسان ...

قاطعهما سانتينو قائلاً :

- بل حال الفقر بينه وبين أن يصبح الشخص مثل رع متى شاء .

تضجرت سلامة للغاية من العدوانية المنفلتة التي يصر عليها سانتينو . حتى بدا وكأن ثباتها السابق كانت تسنده ضربة حظ . كقلعة عبد الله ود سعد . التي ماصمدت طويلاً أمام حملة محمود ود أحمد أو حملة مصر إلا لأن الدراويش من حولها كانوا يعبئون البنادق ويوجهونها بالمقلوب . قالت له سلامة بلهجة أعالي مستبدة :

- هذه العدوانية لن تطول بك أكثر من قامتك يا سانتينو .

لقد ذهبوا بعيداً ونسوا الفنان هناك رائعا ومبجلا بالموت . حتى ذكرى المتوفي تلاشت كما تتلاشى الغمامة في تلافيف الجبل . فالحياة لا تعترف بالتذكارات . لن يتعمق فيهم شيء . هبطوا برماحهم ليرثوا الكون من جديد . أجابها سانتينو بضجر يتمسك بالأرض :

- أخطأتي يا سلامة . التطاول لا يخدمني بشيء . لأنني حفيد لجدود وثنيين يعتقدون أن الأعالي للأرواح الشريرة فقط . أما الأرواح الطيبة فتسكن قريباً من القرية . بحيث يمكنها أن تساعد في لحظات الحاجة .

شعرت سلامة برغبة سانتينو في أن لا يبخل عليها بخنجر . فألقت هذه العبارة ككباري البلاستيك التي يلفق بها الجنود إنسحابهم في لحظات الخطر . قالت له :

- لقد أخبرني السنجك بأنك من أصدقاء أبانك المقربين .

نقل سانتينو مليشياته إلى هذه الجبهة أيضاً بقوله :

- لقد خولت الدنيا رجل إفريقيا أنامل تجيد النحت وتقشير الألحان من الوعي المجهول في الآلة .

صمت سانتينو على نحو إحتقاري ثم أضاف محموماً :

- وخولت الشماليين أنامل تجيد حلب نياقهم وعد نقود لصوصيتهم .

لم تتدخل توجهات الفليل التي حصل عليها بالميلاد . لأنه من الذين يفقهون جمال سانتينو . كما أنه يعرف أن سانتينو يؤمن بروح عالمية . وكل مايريده هو تضليل معالِجة النفس تلك وايهامها بأنه يعاني من إستفزاز لا وجود له في نفسية سانتينو . فسانتينو من النوع الذي يفخر بإفريقيا . ولذلك فقد ترك الفليل مهمة الرد لسلامة التي أجابت على آخر مانطقه سانتينو . كما يفعل الأطفال بالضبط . إذا طالبتهم بإختيار إجابة واحدة من مقترح يحمل إجابتين . قالت سلامة متجاوزة النياق بطولها ومجيبة على شق النقود :

- الشماليون ليسوا باليهود ليكونوا على هذه الشاكلة .

نفض الفليل في وجه سلامة كل ما لحقه من غبار الجري خلفها ثم قال كأي رجل نظيف :

- الشماليون أو اليهود لا يمكن إستثناءهم من الإنسان لتتم التصنيفات بهذه البساطة الفجة .

ألقى الفليل نظرة جديدة على صورة سلامة وشقيقها وقال مستبسلاً في دحر تلك الحرب :

- حقاً إن جمال الرجل يتلخص في عينين وحشيتين يملأهما جنون لا قرار له .

تمعّن الفليل الصورة بشكل دقيق وكأنه يتهجى شيئاً ما ثم أضاف :

- عيون الفنان ملغزة . ولكنها تتفتح على معانٍ كلما انسحرت بهما .

لقد اشتعلت الحرب من حيث لم يتوقع الفليل . فقد أجابته سلامة :

- كأنك تريد أن تقول أن وجه أخي لرجل غرائبي . لقد كان كذلك بالفعل . وكان هذا موضوعاً للشجار بيننا . ربما نحن نحب الإنسان الشقي أو نعجب به . ولكن الحاجة للإنسان الطيب الذي نأمنه على حبنا وإعجابنا تبقى دائماً هي الحاجة الحقيقية . الإنسان الغرائبي موضوع للقصص وليس للحياة .

تريثت سلامة قليلاً عند سيرة الحب . ثم سألت سانتينو هذا السؤال الذي من شأنه

إبراز آدمية الشخص :

- أليس لك حبيبة يا سانتينو ؟

سانتينو ليس حوله من الحزن والمآسي مايكفي لتأليف رواية مؤثرة تشتهر في القرون الوسطى ويجن بها الناس . ولكنه إستطاع أن يصبغ وجهه بشيء كهذا . ثم قال بذات دفء أصوات الكورس التي تنبعث من خلف المسرح في العصور الماضية :

- قبحاء الرجال أو سودهم يخلقون للبطولات فقط . عطيل لمغارات شك كالجحيم . وعنترة لرمضاء صحاري غير مطروقة . وباتريس لتخمّر أمعاءه ديدان الغابة . ولا تنسي أن أحدب نوتردام تقوس ظهره كي يسند من جهته باباً سوف تدفعه المدينة كلها من الجهة الأخرى .

ابتلع سانتينو ريقه كشيء صلب ومكور ثم أضاف ساخراً :

- لقد أخبرك السنجك بصداقتي مع أبانك ولن يبخل عليك باسم حبيبتي .

تركهما الفليل يتشاجران واسترخى كما يسترخي الكلب أسفل نقاع الزير . فلو أزعجه صياح صبية يلعبون بقربه يرفع رأسه بخدر وتكاسل . وحينما يجد البراءة تحفه يغفو من جديد . ليسوا سوى صبية يمزحون بقذف الطين على بعضهم البعض . غاص الفليل في طينه أكثر كي يتحلل من أدرانه . ففي قعر أي طين يرقد ينبوع ماء . تنهد بأسى ونكد قائلاً :

- حَيّ ... فلو تصدقت عليّ المشيئة ببنت مطلوقة . طيبة وتقدر الجيوب أكثر من أصحابها ... سأمضغ لسانها حتى تنتقل إليه الأغنيات من على لساني ... ولكن أين في بيت الدودة هذا ؟ سأحتمل وسلواي هذا المقطع لكمال :

حبيبتي تعلف القطار بشوقها الأبدي

ليبلغ محطة كئيبة

حلمت فيها بأنني أصبحت رجلاً

يقدم للقطار ، وجبة من إنتظاره اللذيذ

فجأة أفزع الجميع إنهدام المأمور بين أيديهم كمبنى حكومي عتيق . سترته أنيقة وإن كان هو مفروضاً على الأناقة . عندما رأى الفليل في إضطجاعة الكلب تلك صاح فيه بحقد لم يدر الرجلان مبرره يومذاك . انتهر الفليل بهياج :

- ألم أقل لك أن تسلك سلوك البشر أيها المنحط ؟

ارتعش فم الفليل كمن قبّلته صاعقة . وأطلت في عينيه رهبة البسطاء ليلاً من مقبرة قديمة ومهجورة بجانب خور تملأه الأدغال . ولكنه تذكر أن سانتينو العملاق معه . فاستجمع شجاعته ليجيب المأمور بوقاحة سافرة قائلاً :

- لا أصدق أن صاحب الصياح الذي كسر هذا العالم الغيبي يعوزه الذنب .

لم يكذب المأمور أذنيه في سماع ذلك الرد الصفيق كما جرت على ذلك عادة أهل الصلف . على كل حال الفليل لا يتفق معه حتى في شرب القهوة . الرضي التوم يشربها كي يتلوها السعوط . والمأمور يشربها دلالة على التفكير . قال المأمور بطريقة معينة محاولاً بها أن يلصق بلهه الشخصي بمهمته :

- هل فرغت منكما سلامة ؟

بالرغم من أن سانتينو يعلم أن المأمور شخصية فقيرة لا تمتلك إلا تكرار أحاديث الآخرين فقد أجابه :

- لسنا أشياء لتفرغ منا سلامة . نحن بشر رأسنا برأسك ؟

أخذ المأمور يُمتر المكتب طولاً وعرضاً بمعنى أنه يحتج بكل ما في العمق الإنساني من غرور . ولكن سلامة تدخلت في الأمور وهي طين قبل أن تُصنع منها آلات الخزف . فألجمت ثورة المأمور وضربت للرجلين موعداً آخر . عندما نهض سانتينو بطوله النيلي تراجع المأمور بحركة معينة محاولاً تغليف تراجعه فيها وإيهامهم بأنها نوع جديد فحسب من حركات غطرسته التي كان يستعرضها . عندما بلغ الرجلان الباب قال الفليل لسانتينو :

- فليقطع الله المأمور . الدعي كالعادة والغبي كما خلق . لقد اقتلعني من معابد الجمال في البجراوية وقذف بي إلى سوق البهائم في الدامر .

أرادت سلامة أن تلطف إنتهاكات المأمور لحقوق التأمل فنادت في الفليل قائلة :

- سيكون لي معك حوار يا الرضي التوم حول الغرائبيين وفنهم .

لم يقصد الفليل إغاظة المأمور بعودته المفاجئة . ولكنه رجل يسكنه حنين فتاك للجمال . وربما يقتله مرور سحابة في أحد الأيام . لقد أمسك به الحنين لطريقة سلامة في الحديث فلم تزحزحه يد سانتينو التي تشده إلى خارج المكتب . إلا بعد أن تأمل سلامة

بانجذاب أثناء تلفيقه لها هذا الكلام . مستغلاً فيه دعوتها له لنقاش حول فن الغرائبيين . قال لها وعيناه تسبّحان :

- ليس أمام اللغة إلا اللغة . وليس أمام حجر المثّال إلا حجر . ولكن أمام الإنسان إنسان آخر . قرأ تأريخه في زمن متقدم . مما أكسبه أعضاء جديدة وتعرف أكثر . إنّ إكتشافات الفن في المادي لن تكون كل جمالياتنا ومعنانا . طالما أن الطبيعة تلد لأي بشر حصتهم من الألغاز . والكون لا يكشف سرّه إلا بمقدار عمره .

ثم خرجا تحت مطر كثيف من بصاق المأمور ولعناته .

الفصل الثالث

دوي صافرة ، صافرة تنعق من الآخرة في الدنيا . المفوض عن النيابة العامة يصيح بأعلى وأغلظ ما لديه من صوت أجش :

- حسنين ود الشريف ... حسنين ود الشريف .

وقف حسنين من بين المحكومين بالاعدام . مُحيّاه ذابل ووجهه قبر يطفح في لجة النيل . فالرغبة في الحياة عندما تطفر من العروق وتطفو على الوجه تصير كل معالم الموت . ما فاته أن يصرخ ولكن فات صوته أن يوجد لحظة حوجته للصراخ . لم يكن بوسعه أن يكون بائساً . فهو بكامله سوف يموت . وقف المأمور خالي اليدين بجانب القاضي الموكل من رئاسة المحكمة . لقد نسى مسبحته فالتسبيح في لحظة مثل هذه ينبعث من التكوين . مكاشفي النوراني عيناه تطرفان وإن كان لا يبدو عليه أنه تخلى عن مقولته : (الموت قمة الخروج من الطين). أحد الأطباء يقف في الوراء هو وشاهدان يدسون أرجلهم من الارتجاف . عشماوي لاعب الموت أتى أيضاً ليعاين قرابينه . وقوف هذا الجمع يشبه بالضبط وقوف الممثلين أمام المتفرجين في نهاية المسرحيات . يبدو أن الدنيا كلها تطلق ضحكة الطيف التي يتميز بها السنجك . والأمور كلها أولها في النور وآخرها في الظلمة .

قام الملازم محمد بكتابة أمور يعرفها من سيشنقون أحداً . وأخذ مكاشفي يعاون حسنين على أداء بعض الأدعية والصلوات التي من شأنها أن تفعل أشياء كثيرة . ربما تفعل أشياء كثيرة بالفعل . ولكن للأسف كلها بعد أن يتلاعب حسنين معهم بروحه . رفع حسنين وجهه الريفي كالقرى الشهباء بفعل السراب والنسيان وقال لرفاقه :

- في رعاية الله .

أجابه رجل يجلس في ركن بعيد :

- إلى اللقاء .

قال مكاشفي لحسنين بصوت خفيض وإن بدا مزعجاً في ذلك السكون المرعب :

- امنحهم حبك وارحل . ماذا بوسع الإنسان أن يمنح غير الحب ؟

ثم خرج موكب توثيق الوفاة ذلك نحو الآخرة بجلبة مكتومة . خرجوا قبل دخول الكوليرا بقليل . فقد وجد كل رجل نفسه يجلس على بحيرة إسهال عفن .

في ذلك الركن الذي تناسلت فيه الرطوبة والظلال كما تتناسل الرغبة والخوف في الظلام . ارتمى رجل له وجه بري . حين يلتفت يلوح وكأنما يطل من خلف رابية تطوقها الحشائش اللافحة برائحة السُموم . جلس د. بدوي رهين الطين وبركة إبن آدم القديمة ممدداً ساقيه للأمام وهو يهمهم بفتور . وجهه كصخرة متجهمة على حافة جبل . الغمام من فوقها والنهر من تحتها . وليس في جوفها إلا جلافة الصخر وعماه . قال لشيطان مكة الذي يجلس بجانبه :

- الأصدقاء يرحلون ونحن لا نمتلك سوى الأسف عليهم . لقد اجتاز حسنين ذلك الحاجز الواهي الذي يفصلنا عن الأزل . لا فرق الآن بينه وبين الأولين من عاد وثمود . ربما فرغ شارب المأمور قبل قليل من رعشته المعهودة أمام دولاب المشنقة . حسنين الآن محض بندول يتأرجح بين عيني المأمور والقيامة . لن تفلت ياخالد العوض .

الثأر من الحياة لا يكون إلا بالجرأة على الموت . أو حينما ييأس الإنسان من الإحتفاظ بالحياة إلى الأبد . يسعى لتفريغها على الفور . فقد هبطت على خالد العوض ـ ملة قارون أو شيطان مكة كما يلقبه الفليل ـ جسارة ليست من طبعه . إذ قال بتضجر حقيقي :

- إنهم ينظفون عنابرنا من الآلات الحادة وكل الأشياء التي يمكنها تشجيع رجل على الإنتحار ! وحتى السراويل ذات التكة ! يحافظون علينا من أجل الشنق ، يالها من نكتة !

سقطت دمعة على خد بدوي كما تسقط قطرة دم على صخرة الحافة تلك من عنق فريسة يحوّم بها جارح . ثم قال ساخراً من الشيطان :

- لا تكن طماعاً . لقد عشت حراً وبطريقتك . مما أتى بك إلى هنا . إذن عليك أن تترك مهمة الوفاة هذه لطريقة أحد آخر . فربما تذهب إلى مكان ذي جدوى .

صحيح أن الكل هنا في انتظار النهاية ، والنهاية تقلق الانتظار . ولكن الحياة هي الانتظار الوحيد الذي لا يمله الانسان . كما أن شيطان مكة من نوع الرجال الذين يولدون مع الدنيا ويموتون مع القيامة . لا نراهم صغارا ولا يكبرون أمامنا .

قال شيطان مكة لبدوي متعجباً :

- الموت لم يكن يعني لي عدا جزء محتمل في السيرة الذاتية . لم أكن أفكر فيه مطلقاً . والآن لاشغل لي إلا التفكير فيه . حين أتذكر أنني مواد عضوية لابد لها أن تتحلل وتتعفن يقتلني الرعب . رعب أن تمتصك جذور النباتات ويبددك نتح الأوراق وأفواه

الزنابير . أما حينما يزورني تأمل الموت وفي اعتقادي أنني روح وسر من أسرار الله ، فأشعر بأن التفكير يذهب بي في طريق لذيذ ويؤدي إلى مهمة أخرى .

ارتدى د. بدوي سيما امرأة بعد النفاس . الخدر يكسو ملامحها ولجسدها حرارة القادمين إلى الأرض . الرقة تنثال من كل ثغرة فيها . وفي أقصى عينيها يطل بحياء بعض قلق المسؤولية التي تجسدت في أحد يموء بجانبها . قال د. بدوي بعد تغيره المفاجئ ولصوته كل هدوء الأشياء التي تركها خلفه :

- إن منطق الحياة نفسه ضد الحياة الدائمة . دعك من التفكير في الموت فأنت ستذوقه قريباً ثم احكم بنفسك إن كان زيته كثيرا أو غير مبهّر جيداً .

تشتت سخرية بدوي من تلافيف ضحكة دوّت كالعواء الغارب في أحشاء فريسة . ينخفض كلما انحسرت أنفاسها وصارت أكثر رضاً بالموت . لم يرق لشيطان مكة تبدل د. بدوي المفاجئ ولكنها نفسيته الغريبة . قال له شيطان مكة كمن يعتذر عن ماضي بعيد :

- كنت أقول لنفسي : (إن كان المال جني المدينة فلابد أن أجعله أحد خدامي المطيعين . أقول له : شخلاي مخلاي . فينفذ رجال القانون طلباتي كالمنومين مغنطيسيا . شخلاي مخلاي . فيتبرع الناس بتقديم أنفسهم للقضاء كمجرمين بدلاً عني). وهكذا تبرعت لي الدنيا بنفسها ودست على كل شيء . فالبراءة أمامي والفدائيون خلفي . إنه المال عفريت المدينة وخادمي أنا .

ردّ عليه بدوي ساخراً :

- لقد أضعت فرصة نادرة . فرجال القانون كانوا أمامك قبل لحظات . لماذا لم تجرب شخلايك ومخلايك معهم ؟

ضحك الرجلان فلاحت الدنيا كلها أنياب . تلى ضحكة بدوي نحنحته التي هي بعض عواء لم يتخلق بعد . ثم هبط صمته المميز كما تهبط مهابة الغابة في الليل . صمته بدائي ووحشي . خلفية لأصوات غابة كاملة وحية . تفرقع الأنهار في ظلماتها كأنها تجرف البارود . ثم جاء حديثه كمحاولة لحاق بالماضي للإنتقام منه أكثر من مرة . قال بدوي وهو يصفع يده بالأخرى :

- لكم كنت رخيصاً . كنت أقول لها : (قولي أحبك). فتجيبني بمقت : (ولكني لم

أعد أحبك) . حينها أتوسل إليها قائلاً : (اخدعيني بها ولو مرة في العمر فما أجمل الحب حين نباركه بالوهم) .

سأله شيطان مكة من أجل السؤال فقط . فهو يكره صمت بدوي المخيف :

- لماذا فعلت بها الفاحشة ؟

- أية فاحشة ؟ لقد كانت زوجتي .

- أي مريض أنت !؟

ضحك د. بدوي بألم ثم قال وكأنه يجتر ذكريات تتجول فيه مما قبل الآدمية :

- لقد كان فخذاها يعلوان كجانبي القبر المفتوح . ألححت على النزول . كان لابد لي أن أرى الغمام وهو يغوص في الأرض تاماً وبلا تقطير . شعرت بالراحة . ربما لإحساسي بأنني زنيت الموت .

حاول شيطان مكة أن يقاطعه كي يخلص الغرفة من رائحة الجثث اللاصقة بها على الدوام . ولكن بدوي لم ينصرف كلية . فقد تابع :

- إنني الآن جثة . لم تعد تأكلني نار غيرة ما . رجل بلا عذاب . وماذا يعني رجل بلا عذاب !؟ أو امرأة بلا حزن ؟ . ليس ثمة دخان يخرج مني . مدخنة تالفة ولن تصلح حتى لذرق الطير .

ابتلع د. بدوي ريقه كفضيض شلال ضخمه صدى الجبل وأضاف :

- البرود المهول الذي أشعر به الآن ، يفسر لي أهمية الحقد في تدفئة الإنسان .

ربما أراد د. بدوي أن يطلع على الدنيا المظلمة للآخرين كي يقرأها قرب فانوس ما . فقد سأل شيطان مكة بدون أي مقدمات قائلاً :

- وماذا عن زوجتك أنت ؟

- لا حكايات . إنها من نوع المرأة التي تمشي في ظل الرجل ولا تمد هامتها إلى شمس الهجير أبداً .

- لقد كنت تقتنيها إذن كبناياتك ومتاجرك ؟

أطلق شيطان مكة ضحكة كقرقعة الدلو في بئر يابسة وضحلة قبل أن يقول :

- إن المرأة أول وأروع من يستجيب لشخلاي مخلاي .

بعد فراغ بدوي من إجراء مقارنته السرية قال كنتيجة :

- نادين لم تكن زوجتي إلا خلال لحظات نادرة أختلسها من حقيقة أنها زوجة كبريائها . أحببتها بجنون واكتفت هي بمجرد السماح لي بأن أعيش معها . أنا ضعيف ... ضعيف أمام كل شيء . أمام الحب وأمام الكره والجحود . أمام مواضيع الإرادة بشكل عام . وحتى الصلاة أنا أصليها أحياناً لأنني ضعيف وليس لأنني مؤمن .

قال له شيطان مكة بطريقة تجسسية :

- الغريب أن الانكسار لا يشبهك !؟

- ولكنه يشبه الحب .

- أين هو الحب يا رجل وأنت تقول أن تلك الحادثة البشعة أدخلت السرور إلي نفسك ؟

أجابه بدوي وكأنما وقع على منجم إنتشاء غير مرئي :

- سرور الفجيعة يا صديقي . أنت لم تجرب أن تأخذ بلطة في يدك وتتلمس طريقك تحت مطر رعب أسطوري . الأرض دم . والجزر تلوح على تعرجات موجه كنار في سقف البيوت . ومن ثَم تقرأ الدنيا هكذا : القراصنة دينها البحر ، الرهبان دينها الهروب ، المرأة دينها الخيانة ، الجسد دينه الجنس والمال دين الأرض .. فما دينك أنت ؟ .. حينها تجيبك البلطة : أنا دينك وما أمامك غابة ناس كفار .

فرك د. بدوي يديه بعنف وتابع وهو يرغي ويضحك :

- ثم لن تحزن على أحد . فالأرض أرحم بمن تحتها ممن هم فوقها . ماهو الفرق الآن بينك وبين كمال ؟ لا فرق ، هنا يستوي الجميع . لا فرق بين الموعودين بالموت والموعودين بمنعهم عن الحياة . والحياة في الأصل هي إعدادي موت . هل ضايقتك يا خالد ؟ حالياً سأكتفي بإبداء أسفي لك . ولكن خذه مني كوعد يا عزيزي أن أبحث لك غداً عن عذر . أو ربما أبعثه لك من ديار الأموات .

مهما أوتي شيطان مكة من أعين فإنه لن يرى الحياة من هذه الزاوية . فقد قال لبدوي متحسراً :

- إذن فسأنطفئ كالنجوم الأخيرة . بعد أن خلت لي السماء والليل . في الوقت الذي صرت فيه كل شيء راح كل شيء .

جاءت محاولة إقناع بدوي لشيطان مكة بعدم جدوى الحياة كمحاولة عقيمة للتبول . فالقروح تسد قناة البول والألم يكسر الرغبة في المحاولة . قال له بدوي :

- الكوارث تحل بالرؤوس المتطلعة . ولكن لا عليك يا صديقي . إن الموت هو الحياة القديمة . حياة ما قبل الميلاد . هل كنت تتعذب قبل أن يلدك أبواك ؟

تمتم شيطان مكة بحس مفجوع وخائف :

- المشكلة أنني رجل تطلبه عدالة الله قبل مفتشي الشرطة .

ردّ بدوي وكأنه لا يعني أحداً في ذلك المكان :

- الإنسان أروع من يعصي الأخلاق . ولكن عيبه أنه لا يتحمل المعاصي .

تلفت د. بدوي ثم أضاف ببعض الهدوء :

- الموت أرخص من خوفنا منه . كل ما نمقته هو المماطلة . فلتنتهي الأمور على أسوأ حال ولكن فقط عليها أن لا تماطل .

قال شيطان مكة لنفسه وبصوت خفيض بعد أن تأمل بدوي المريض في نظره :

- أن أطل على الدنيا بمرض خير من أن يسكن أجفاني الدود .

أعقب ذلك قائلاً ولصوته رعدة الحمى :

- كنت أختبئ من ظلامة في ظلامة . وأينما أخفيت رأسي سقطت عليه دعوة مظلوم . أنقذني يا رب وسأسجد لك على الجمر .

- ينقذك بمعنى أن يذهب بك إلى أين ؟

- إلى الدنيا التي تفتقدني بالخارج . إلى صخب الأسواق والشوارع والمتنزهات الحالمة . إلى النيل ومقطوراته خافتة الإضاءة . إلى الفنادق ليلاً والبورصات نهاراً . إلى الحرية يا رجل .

همهم د. بدوي كأنما يشرح لنفسه :

- أهمم .. إلى حيث تسجن هناك .

ثم استطرد بدوي متسائلا وبصوت شامت النبرة :

- وفيم تنقصك الحرية ؟ أنت لم تكن حراً ذات يوم . إن الأشياء تملكنا إن أسرفنا في امتلاكها .

غطى وجه شيطان مكة وجوم غامض وهو يقول :

- ربما هذا صحيح ولكنه غير عملي . لقد زايلني في أحد الأيام احساس غريب وأنا أخرج من مبناي التجاري الضخم والناس يدخلون إليه ويخرجون كالصراصير البائسة .

سألت نفسي : هل صحيح أنني أمتلك كل هذه الدنيا التي يتجول فيها الناس ؟ كنت أمر دون أدنى تمييز وكأنني أحد المتسوقين البسطاء . الغريب أنه كان بوسعي أن أطردهم جميعاً . وأن ألقي بكل خطاهم خارجاً . بينما كنت أمر وليس في يدي دليل واحد على ذلك . لن يصدقوا أن هذا الرجل الذي يمر مثلهم هو من يسمح لهم بالمرور . هو بمفرده من يعنونه كلهم بتسكعهم هذا . يا إلهي . إنّ الأشياء تكبر علينا .

أدار بدوي رأسه بحركة حادة كي يبصق ثم قاطعه قائلاً :

– ربما لن تصدقني لو قلت لك أن ذلك الاحساس نفسه هو الذي جعل منك شيطان مكة بالتحديد . فالإنسان يقول في أعماقه : مهما كبرت الأشياء فإنها لن تتخطى عجزها .

ضحك بدوي على نحو مريض ثم أضاف :

– بالرغم من أن تاريخ الإنسان هو تاريخ صراعه مع الأشياء .

تابع شيطان مكة قائلاً وبعدم إكتراث :

– المهم أنني ناديت مدير المبنى وأمرته بإخلائه فوراً . فهنالك أمر خطير أعرفه وحدي . أو لحكمة لا يشاركني في معرفتها أحد . لا يهم ، فعندما تصبح رجلاً لك قيمة . كذبك أيضاً يصبح له قيمة . لقد أصبح المبنى خالياً في غضون لحظات ولا تتردد فيه إلا أنفاسي . انتابني إحساس التميز والإطلاق لبرهة من الوقت . ولكن أنا بشر ورغبتي قد تحققت . إذن ماذا بعد ؟ يبدو أن لنا حدوداً تغلقنا . أجبت نفسي على الفور : عليّ أن أهتم بمملكتي ولا أحبط . أنا رجل قوي ولست بفنان كي يستهويني هذا اللامعنى .

توقف شيطان مكة ليشبع ضحكاً ثم تابع حديثه مصححاً نفسه بقوله :

– أقصد أن الحياة هي التي كانت قوية . فسريعاً ما نادتني الأبهة والجاه ، الفنادق ، والسهر على أفخاذ النساء . لكم هي الحياة قوية وفاتنة . إن العيش في مرحاض خير من الموت .

أجابه الدكتور شامتاً :

– والآن ، ماذا بين يديك غير نفايات الأسف ؟ ستموت في ليلة دافئة . النجوم توقد نارها في البعيد ولا تهتم . وأنت تحتضر كأي شاة يحرسها الصنان في زريبة تافهة .

إنه الشيطان الذي تبنى الشر من أجل الخلود ولن يفارقه إغواء الحياة حتى على أعتاب القيامة . قال لدكتور بدوي بأسى :

- يا ليتني كنت رومانسيا كي أؤمن بمقطع بشرى الذي يقول :

الليل يسوقني نحو أبديته

ولكني ألمح النجوم

تمد ألقها الخالد

وترقّش إنحناءات الموج

وأطراف الجزر

كالأشجار أبدل أنفاسي

ضد الليل ، ولا أنكسر

وكمياه الوادي

أعوي على الصخور الداكنة

وفي المنحدر

ويجوع قلبي كغابة في الظلام

الليل يطلق اشتهاءها للحياة

بعد فراغ شيطان مكة من قراءته المنفعلة . أجابه بدوي بأنفاس مغتاظة :

- الإيمان بمثل هذا الكلام تحققه المبادئ وليس الرومانسية .

- إيييه...المبادئ !! كنت أضعها في رفوف التواليت مع أوراق النظافة وقطن عشيقاتي .

- أما لو منحوك فرصة أخرى فستضعها في رفوف مستنداتك التي تضلل بها القضاء . أم ماذا ؟

أطلق د. بدوي ضحكة كصوت طق الفأس للشجر ثم أضاف :

- أنت مصمم كما أنت عليه . ولن تأبه إلا بما يمنحك الحياة . المال بالخارج كان يمنحك الحياة وأنت تمنحه إرادتك وإنسانك . وعندما حُكم عليك بالإعدام . اكتشفت أن المبادئ تمنح الحياة للذين لم يحاكموا بالاعدام مثلك . ولهذا فقط شعرت بأنك كنت تحتاجها في ماضيك . ولكن لماذا ؟ الإجابة : كوسيلة تكافح بها أحكام الاعدام مستقبلا . أما أن تحتاجها لذاتها !؟ فذلك ما لا يمكنك أبداً . وهذا ماعنيته من قصة تصميمك .

تكشيرة شيطان مكة أظهرت مانحتته الولائم على أسنانه من شروخ . آثار النهم . أو درب الدنيا على الفم . دارى شيطان مكة تلك التكشيرة التي تثبت أنه أخذ من الدنيا

فوق حصته ليقول بصوت كله طمع :

- فقط لو أخرج من هنا .

- الخروج من هنا لن يجعلك تؤمن بالمبادئ . وأمثالك لا يتوبون بل يصبحون أكثر حيطة .

فرقع بدوي أصابعه واسترسل قائلاً :

- المشكلة أنه لو رسموا خريطة لنوعك هذا كالتي توضح أماكن زراعة القمح في العالم . فلن يعفوا من التظليل الايجابي إلا المرضى أمثالي والغرائبيين أمثال كمال . وأصحاب الجدية الفارغة من أمثال بشرى ومكاشفي .

القوي بإطلاق يحقق مايريده من نتائج . والذي بلغ قاع الإنهيار واليأس غير معنٍ بالنتائج أصلا . إذن فهما متطابقان في المنطق . فقد قال شيطان مكة لبدوي بكل ثبات وجرأة :

- مكاشفي يقول : (كان الطريق ولمّا أكن . وكنت الخُطى ولمّا تكن) .

صمت شيطان مكة لفترة لا تكفي كي يرضى الانسان ببلواه ثم أضاف :

- علينا بالصبر .

أجابه بدوي متعجلاً وبهزء :

- الصبر لتجاوز مرحلة أو لبلوغ أخرى . الذي تتحدث عنه إسمه القبول بالموت . هذه الزنزانة يمتد فوقها أفق بلا أمل .

- إن كنا سنرضى بالموت فلا بأس . ربما حين نألف موتنا في الحياة نرحل بلا ألم . لنشق ظلمة الأرض كقطارات الأنفاق . وفي بالنا المحطات البعيدة والمجهولة . ألم يقل بشرى محمود :

لا أموت

ولكني أرقد في قدر جديد

ليرث أوعيتي ...

فراغ مبتداها

وتصحو فيها ، حيوات الخلود

أخذ د. بدوي يمج الكلام بسخرية وتهكم وهو يقول :

- تفرغ أوعيتي ! تمتلئ أوعيتي ، أههها .. الخلود ؟ لا هذا صوت الصناديق في مصنع البيبسي .

جحظت عينا د. بدوي على نحو يخيف شيطان مكة ثم أكمل قائلاً :

- الدود وحده الذي يرث أوعيتنا فارغة ومليئة . لقد أصبحتَ كالأرملة . تبحث عن العزاء في كل شيء تافه وسطحي . الثياب ، الطبيخ ، الطريقة الخاصة في الحديث وما إليه . ولكن يبقى قلبها لايعزيه سوى الحزن .

أشاح خالد العوض بوجهه كاحتجاج فأضاف بدوي مؤكداً :

- هذا الكلام حقيقة . هاأنت ذا ملة قارون تدمن أشعار بشرى . ولن تخشى عليه إن كانوا سيرمونه معنا في زنزانة الموت هذه .

- اطمئن يا بدوي . فهم ليسوا بلهاء لينتدبوه للموت من هذه الغرفة . كما أنهم لن يعوزهم الخلاء في هذا البلد الفاضي . سيقتادونه إليه ذات ليلة ويضربونه بالرصاص كأي بقرة مسعورة وليهوهو الخلاء ملء فيافيه وشدوقه .

- هذا أفضل فكلاكما مروج سُموم . أنت تلوث أدمغة الناس بالهيروين . وهو يلوث أحاسيسهم بطيبة مقيتة .

أصلح الدكتور من شأن سرواله المهلهل ثم استرسل قائلاً :

- اسمع ، ماذا سيفعل بالحرية التي يهلوس بها هذه ؟ هل تصدق ؟ إنني هنا أشعر بالأمان . لكم هي الحرية مخيفة . إن الذي يفعله بشرى ليس تلطيفا للبؤس الإنساني كما يعتقد . وإنما خيانة وغش كريه . إن كانت الحياة مسمومة فيجب أن نصوم عنها . كان عليه أن يكون أميناً ككمال ويقول للناس :

إنني وهم يخطو هنا
ليخدم أقداراً بعيدة
أبتني جسري فوق ما أخاف
وأعبر للصقيع
ساحباً خلفي ذهولي
ونكبة في الحس
تتعذر بعدها الحياة

الغيظ جعل شيطان مكة يبحث في فمه عن أذن لدكتور بدوي كي يعضها . ولكنه لم يعثر إلا على لسانه فخرج نداءه خلف الحياة دامياً :

- الحكيم كمال ! ؟ إن الحكمة كلها قيلت إذن ولم يتبق إلا أن يصبح الناس حكماء . ماذا ؟ كمال ؟ الذي بنطاله كقراب البندقية ؟ فساء الشيطان ؟ البارد ، وعدو الجدية والحياة ؟ إن وضعنا معه في سجن واحد مكيدة لا تغتفر .

شيطان مكة تعنيه الحياة كما هي . شوق تنضب الروح خلفه ولا شبع له . فلا بد أن يمقت كمال الذي يفضل تحويل شراباته من قدم إلى الأخرى . على تحويل الأرصدة من حفرة بنك إلى أختها . لن يتفقا أبداً . بل كل واحد منهما يقف على كوكب . لذا تجاهل د. بدوي أمر المرافعة عن كمال وقال عن مكائد السجن بلوعة :

- إنّ مكيدة السجن الوحيدة يا خالد أنه يجعلك تشعر بأن الحياة لها معنى في تفاصيل صغيرة وتافهة . ستحن إلى محطة مررت بها يوماً ولم تنتبه . وستحن لرؤية المقبرة في الأعياد وشجرة في مدخل القرية .

ضم بدوي فخذيه إلى صدره وأنّ كجمل استفحلت عليه الصحراء . ثم أكمل قائلاً :

- لا بد أن نكره لنتحرر من العذاب . إن الكراهية عفن الحب . ولذلك فهي المضاد الحيوي الذي يشفي من داء الحنين .

ألقى شيطان مكة نظرة على د. بدوي تضيفه إلى مكائد السجن بلا أدنى تردد وقال له :

- أنت تكره هكذا للاشيء . أما أنا فلا أكره ، وأيضاً لا أحب ولكن كي أستفيد .

- أنا أكره لأنني أريد كل الحب .

احتمال أن شيطان مكة لم يفهم . أو لن يستفيد شيئاً إن هو فهم . فقد أخذ يعبث برجليه كأنه يجلس على ضفة نهر ويخضهما في الماء . عندما رآه بدوي على هذه الحال نسيه واختار له أيضاً طريقة للعبث . فقد بدأ يشغل نفسه بتحوير شقوق الحائط إلى أشكال مفهومة له وحده .

قعقع درابزين الزنزانة فالتفت رأسا الرجلين بزاوية وسرعة موحدة . كأنما حركتهما رقبة واحدة . تطلعا إلى الفليل الذي وقف عند النافذة يجلله حزن كالخزي . وعلى وجهه شيء كوصمة العار . جلبابه متسخ على غير العادة . الدرابزين يحول بينه

وبين الدخول . كان في الماضي يتحايل عليه ويدخل . بحجة أنه يشعر ببعض الحرية عندما يخرج من زنزانة المحكومين بالموت إلى فسحة العنابر المفتوحة . ولكن لا يبدو أن لديه رغبة الآن . فقد كان مضطرباً ويلوح عليه تعب العودة من مشوار تفكير مقلق وموضوعه حساس . قال معزياً في حسنين :

- الحياة كامرأة اضطرتها الظروف للدعارة . إن منحوها حقها تشعر بالتفاهة . وإن حرموها منه تتذكر جوعها وتبكي .

ردّ عليه شيطان مكة قائلاً وبلوعة :

- لقد حصدوا صديقك حسنين ولن يزرع مرة أخرى .

أما د. بدوي فاختار أن يقول له وبسخط :

- لا تنعانا أيها الأبله . فالراحة للشجر . إن كنت تستطيع أن تلقي بجذورك إلى باطن الأرض فستهنأ .

- بل الراحة للنهر. أن يكون لك حس في البراري ودرب . هذه حكمة غجر لم يفلت منهم أي طعم أرض كانت .

أبهج رد الفليل شيطان مكة فنسى بؤسه . ولاح من جديد درب الدنيا على الفم . ثم فرك شيطان مكة يده بالأخرى قبل أن يسحبها إلى الأمام بحركة سريعة ويفرقع بها . إنه يؤيد الفليل وبحماس مدوي . مما شجع الفليل على أن يضيف وبطريقة حاسمة وفيها مزاح :

- ملة قارون يوافقني . لا تتفلسف يا بدوي . لن تقنعنا بأن نسلم أصلابنا للدود والدنيا لا تزال تولد فيها فتيات وتنبت لهن أرداف وصدور .

قهقه شيطان مكة ببهجة طفولية . أما بدوي فقد أجاب الفليل بصوت لايزال عصياً على الضحك قائلا :

- المرأة ليست أروع من هذا الشعور بفقدها .

أجابه الفليل بهدوء مثابر :

- الفقد لا يمنح شيئاً . وأنت لم تكتشف المرأة . اسألني أنا كولومبس النساء .

تلفت بدوي كأنه يبحث عن حفرة ليبصق فيها تلك الابتسامة . التي لو تجاهلها فلابد أن تجعل له سيلان ضحك يُخسره قضيته . قال للفليل بلؤم مصطنع :

- إنّ للفقد جمال . وأنا أحسه الآن يتسلل إلى أعماقي كرائحة الورود .

اجتهدت عينا الفليل أكثر في اللمعان ثم قال :

- حتى لو كان هذا صحيحاً فهو أيضاً لصالح المرأة . مخلوق حيازته نعمة وفقده نعمة . تخيل مدى خسارتنا لو لم يخلقوه بالمرة . وطالما أنك لست كولومبس نساء ولا تعرف المرأة الحقيقية فإن جمال الفقد الذي تعنيه هذا لشبهها فحسب . إذ أن حديثك عن المرأة كحديث القواميس عن النطق . فهي في الحقيقة لا تكتب نطق الكلمة . وإنما تكتب شبه الكلمة . فماذا لو لم يكن للكلمة شبه ؟ لن ننطق أو لن يكون هنالك جمال من أساسه .

لا بفقد ولا بدون فقد .

صمت الفليل قليلاً ثم أضاف :

- لن تتكبر على الجمال يا بدوي .

- إنه طُعم لا أكثر .

ردّ عليه شيطان مكة قائلاً :

- حتى لو كان طُعماً فالأفضل لنا أن نشغل وظيفة السمكة هذه . إنها بأي حال أفضل من العطالة التي تجعل من الانسان ميكروباً ناطقاً .

انفلتت من بدوي ابتسامة بحجم فم الأطفال وهو يقول :

- لقد أفسدتكما أيام الحبس .

غمز الفليل بعينه لشيطان مكة . فالأمور في البداية هزت رأسها في شكل لا. إذن سيكون لنعم التي تأتي متأخرة . مذاق الأطفال الذين تعسرت ولادتهم . ثم ردّ على بدوي قائلاً :

- بل كشفتنا . أنا الآن أقدّس ذكرياتي . ولكم تشوقني تلك الأيام الأنيقة التي يصبح فيها الليل رغيفاً نقرضه على رائحة دخان امرأة تأتي من بعيد . من الطرف الآخر للقرية .

ضحك شيطان مكة والفليل بمتعة وتوكل . وضحك بدوي بعمق وعدم فهم . كما يضحك الأطفال من أصوات الكلام وليس من مضمونه . لملم الفليل جلبابه المتسخ كمن يهم بالإنصراف ثم قال لهما بصوت ترتيلي لا يشبه صوته الخليع والمعتاد :

- بشرى يقول في أشعاره :

حرٌ ، لأني أحني رأسي للورود

وللسماء ...

إن ساقتني نجمة

لربي البعيد

ثم أعطاهما ظهره وقال مودعاً :

- لأنطلق أنا .

ترجاه شيطان مكة بمرح حينما صاح فيه :

- تنطلق فيك حربة . تعال .

ولكنه الفليل . اختفى كالشبح . أو علا كالدخان وتركهما لمنافض الرماد . نادى فيه الرجلان . ولكنه ذهب وانطوى طريقه خلفه كظله .

الفصل الرابع

في الفناء الخلفي لمسجد السجن تنهض غرفة مكاشفي النوراني كدكة سفينة نوبية باهظة التاريخ . البحر يترامى أمامها وتروق له فكرة أنه بحر . وأشرعتها مطوية كهن النوبيات الختين . من تحتها قراص الملح ومن فوقها رائحة العاصفة . فارقت ألفة المراسي وصار لها في الألم حياة .

غرفة وحيدة ومحبة . لا يعتبرها صاحبها موضع قدم لمزيد من الأرض . بل خطوة نحو عالم آخر . ولهذا فقد استوحشت المدن مقبوضة الروح وباردة الإرادة . وابتنت أقدارها في هذا المكان . لا يهم ، فالجمال هو الجمال . إن رسم فان جوخ في المرحاض فالرسم لفان جوخ .

كان حمدان يتهرب من شبحه وهو في طريقه إلى غرفة مكاشفي . الدنيا حر لا هوادة فيه . ولكن الشاي في غرفة مكاشفي له مناخ خارج الفصول المعهودة للسنة . خلع حمدان نعليه عند باب الغرفة تأدبا . ثم دخل بعد ذلك ليجلس متحررا من الكلفة .

يبدو ككل الحركيين . متحفظ وتطارده خيالات الجواسيس . عيناه مرتابتان ولا تخلقان لهما علاقة بشيء إلا لكشف مؤامرته . الدسيسة يا رجل . النووي لقتل المسلمين . والقنوات الفضائية لقتل أخلاقهم . أنت لم ترهم وهم يتغامزون في الظلام . تفف ، تف اليهود والنصارى !؟ ولكن الله معنا يا رجل . شالينجر انفجر على رؤوسهم . كل العالم يحقد علينا . أولئك الشيوعيين الملاحدة ! بررر ولكن شارنوبل انفقع بين أيديهم . لقد صلت عليهم أمريكا صلاة الجنازة وأرجلهم لا تزال ترفس . ولكن كل هذا انطباع . فحمدان أذكى من هذا النوع . وإن كانت أساليب التفكير الحاضرة تتقدمه قليلا .

رجل موفور المروءة . إلا أن مزاجه حاد بعض الشيء . ألقى بالتحية على مكاشفي الذي جلس كجبل مهول ينصت لثرثرة نهر أسفل أقدامه . ثم ابتدره قائلا :

- إن وهبنا الله العافية فلا نطلب غيرها .

انحنى مكاشفي في جهة وابور الجازولين وأجابه بصوت مرهق وفيه مزاح :

- العافية أم الشهوات . فليهبنا الله معها الإرادة وسلامة النفس .

أجابه حمدان وهو يناوله بعض الأواني :

- دوافع الحياة تفكر فينا على نحو دائم . مهما تبتل الإنسان فإن الحياة تبحث عن عمقها فيه .

نار الوابور كانت تلقي بظلالها على شيب مكاشفي . النضج يماطل ، لقد كلفه هذا التوازن عشرة أعوام وأربع حبيبات وهو فوق سن العشرين . الأدهي أنه ترك حروقا على القلب ليس لها عمر . أخذ مكاشفي يطوح بيديه كي يطرد الدخان من أمامه . ثم سعل قبل أن يقول :

- الخطيئة نفسها محاولة لتعميق الحياة . الحياة الصالحة إن أنتجتها البراءة والظروف فلن تكون ذات عمق أبدا .

رد حمدان معابثا مكاشفي :

- أتوصي بالخطيئة يا نوراني ؟

- أعوذ بالله . بل أوصي أن يطردها التفكر وليس قلة الحيلة .

أثناء انشغال مكاشفي بغسل الأواني قال لحمدان كاستدراك :

- بما أن اسمها الحياة فإنها لن تترك الانسان في حاله وهو حي .

تنهد مكاشفي فبدا أنه مجرح لدرجة أن يستغيث من أيادي العون التي تمتد إليه . رفع رأسه إلى حمدان الذي كان قد تمدد قرب أوراق له ثم قال :

- قبل أن تدخل إلى هنا يا حمدان كنت أردد هذا المقطع لكمال :

مع الريح ألقيت دمعي

وتركت حزني للعدم

ربما صار جليا لحمدان أن مكاشفي يصمد لأنه يقاوم . وليس لأن الله قد صممه قلعة . هذا طبيعي . والمقاومة قدر الانسان . ولكن كيف ؟ الحركيون يظنون أن صمود المتصوفة الخارق يدعمه الشيطان . وهذا لا يهم . فالشروق له سحنة تشبه سحنة الغروب كثيرا . ولكن عندما تتوغل الشمس في مهمتها يتضح لكم هو مختلف جوهر الأشياء . فقد أضاف مكاشفي :

- الناس يكافحون الحزن . ولكن الصوفي وحده الذي يترك حزنه للعدم .

قال حمدان مبخسا إعجاب مكاشفي بكمال :

- إنه جيد ولكن تفلسفه الفارغ أكثر من فنه .

أجابه مكاشفي بحزم :

- مطلقا لا . إن الذي يلمس عمق الأشياء في أعماله موهبة الخلق وليس إجتهاد الفيلسوف .

صمتا لفترة تكفي لإنضاج الشاي . قال مكاشفي وهو يصب الشاي لحمدان :

- أحيانا نجد أننا نعيش حياة كالركض أمام الذخيرة ...

قاطعه صوت من خارج الغرفة قائلا :

- أما لو كنا نعيش حياة كالركض خلف السيدات لكان لها نصيب في الربح مثل الذي لها في الخسارة .

وقف سانتينو عند المدخل بقامته التي لا بد من السير بها تلصصا كي لا تنطح السماء .

شامخ كأن الكجور قد شيده صرحا للشجار . إفريقي دخل الحياة كطين نبت بمفرده .

بعد أن ذهبت آلهة الوثنية وملائكتها . دعاه مكاشفي للجلوس وطالعه حمدان بعيون كلها تعاويذ من الرمد . طوى سانتينو مصلاة مكاشفي وجلس في مكانها . ليس لأنه نجس . ولكن كنوع من التفاهم مع الديانات . وكتعبير عن احترامه لمكاشفي . وأيضا ليكون أكثر قربا من مكتبة مكاشفي . انشغل مكاشفي بتقديم الشاي له . أما حمدان فقال له عن مطاردة السيدات :

- الذي يعيش حياة كالركض خلف السيدات وحش وليس بإنسان .

أجابه سانتينو ببرود :

- الإنسان والحيوان كلاهما وحش . ولكن وحشية الإنسان تختلف عن وحشية الحيوان في أنها تبرر وسرية للغاية .

امتعض حمدان وأجابه كمن يسحب تورطه :

- أنت ستحتاج إلى كوم قساوسة حين توافق على الإدلاء باعترافك .

ضحك سانتينو باستخفاف ثم أجابه :

- فعلا أحتاج إلى كوم قساوسة . ولكن لكي أسلمهم للفليل .

ربما يستغرب حمدان من كبرياء هذا اللص وبجاحته . أما المتصوفة فيعرفون أن الله خلق البشر كلهم من النواقص وغلفهم بالكبرياء . كي لا يقتلهم الشعور بالوضاعة .

فالكبرياء ليس من قيمة الشخص وإنما من تكوينه . وربما يتفوق كبرياء داعرة على كبرياء ملك . كمحاولة من حمدان لملاحقة ذلك الكبرياء قال عن الوحشية :

- نحن سلمنا الطبيعة عواءها حينما خرجنا من الغابة .

حمدان لا يؤمن بأن تاريخ الانسان فيه غابة وحيوانات ولغاويث . ولكن لا بأس من مجاراة حفيد لهذه الفكرة . لم يترك مكاشفي الرد لسانتينو فقد أسرع قائلا :

- لا بل طمرته فينا . ليستيقظ كصدى لهرولة الدماء كلما بعد المشوار بين الجسد والروح .

حشر مكاشفي يديه خلف رأسه ليسنده على الجدار ثم استرسل قائلا :

- في مساء اليوم الذي أعدم فيه حسنين . ذهبت إلى عنبر المحكومين بالإعدام لأتحدث إليهم . واختليت بعد ذلك بدكتور بدوي . كان يرتجف وهو يردد : (الجوع ، الجوع إلى الأبد . جسدي يلتهم الأشياء وهي حية . وروحي البكتريا التي تعقبه) . ولما سألته : أجسدك وروحك فم يفغر عن اشتهائه للأبد ؟ أين العقل إذن ؟ أجابني بجنون : (العقل لتحديد ما يمكن أكله) .

قاطع حمدان مكاشفي بقوله :

- إن بدوي مريض ومهمته في الحياة ومهمة السوسة واحدة .

رد عليه مكاشفي بوجه مهموم :

- إنها ليست مشكلته وحده . إنها المصيدة التي تليق بإنسان اليوم . مشكلة الغرب بأكمله والمتأثرين به . نفي الحياة الذهنية . لا تتعجب إن قلت لك أن الصوفية حالة تفكير عميقة . وليست حالة وجد إنفعالية . الإنفعال عمى ولن ينتج إلا الظلام . عندما يتقد الذهن تنفتح البصيرة ويميز الانسان بين المعالم والكنه . فيعرف السلام . التصوف الذي أعرفه منتوج عقلي . وذهنية الغربيين تنفق كلها على الآليات والسيطرة . أما إنسانهم فلا يزال يتقلب بين دوامة الجسد والروح . علما بأن الروح عندهم لا تزيد على كونها موتورا للجسد . وحتى التدريب الذي تتلقاه عقولهم فمن أجل جعلها حاسبات كفوءة فحسب . أما تدريبها من أجل جعلها كمصدر للحياة . فهذا طريق اندس في الحشائش السامة لحضارتهم .

وجدها حمدان فرصة ليفصح عن رأيه في المتصوفة فقال :

- إن هذا الكلام لا يضر بمعتقداتي في شيء . ولكن ماذا عن دراويشكم السذج ؟

أجابه مكاشفي :

- السذج لم يخلقهم الله ليذهبوا إلى مكان . إنهم سماد موضعهم . ولكن الذي يجب أن تعرفه أن الصلاح غير التصوف . ومنهم ناس تعنيهم مخافة الله .

استنكر سانتينو بصوت ساخر النبرة حينما تساءل :

- أي ناس تقصد يا مكاشفي ؟

هو يقصد أية أخلاق للبشر ؟ فالحياة طويلة بما يكفي لمنح البشر فرصا كثيرة ليكذبوا ويخونوا ويسرقوا . حمدان سيكيل إلى سانتينو من جرابه . فقد أجابه :

- أنت الصادق . هذا زمان الناس لا تؤتمن فيه على حب ولا على مال .

أطلق سانتينو ضحكة لا مبالاة في وجه حمدان ثم أجابه :

- نعم سانتينو يقصد نفسه وباقي الدنيا .

أراد سانتينو أن يقيس الحرارة بجوف حمدان فزاغ أحد حاجبيه إلى أعلى بطريقة زئبقية . ثم تطلع إلى حمدان بهزء وأضاف مكايدا :

- إن صديقي الفليل يمتص خجل السيدات فقط . وحين تغدو السيدة بلا خجل يتركها ويحط على أخرى . ياله من زنبور . كل ما يستهويه من ورود ابن آدم الخجل . إنه زمان لصوص الأحاسيس . فما أتفه سانتينو حين يسرق الساردين ونفايات الملابس .

حمدان لن يجاري هذا السفيه . الصمت أفضل . رفع مكاشفي رأسه إلى أعلى ببطء . كأنما كان ينبت في تلك اللحظة لأول مرة . ووجه حديثه إلى سانتينو قائلا بأسى :

- يوما ما سينضب جسده ولن تقرضه الروح يوما واحدا فوق الذي بدده الجسد . ولن يعرف كيف يعيش . الذي ينقذ الفليل إلى الآن أنه لم يشبع . ولكن حين تألف نزواته مشاويرها فسيقتله ذلك الخوف الذي يتفجر في الأعماق بلا سبب . وسيتخطى الألم أحاسيسه وينبت في الذاكرة . كي تولد الآلام في مستقبله كل لحظة . على الإنسان أن ينضبط وإلا فسوف تضبطه الطبيعة .

ثم ساد الهدوء . الهدوء التام والعميق . لم يكن صمتا ذلك الذي أفرغ الغرفة من الأصوات والحركة . وإنما كانت الأرواح قد تبعت ظلها وتركت أجسادها للأشباح . أجواء الجسد باردة وصقيع . مما يغري الأشباح بأمور تبعث الدفء . تناول حمدان أول مدونة

شعر وقعت عليها يده بين أوراق مكاشفي ثم قرأ عليهما :

إن تكشف عن الذات تغترب

إن تغرق في سر المعاني

أو سر ما فيها من لظى

تنسرب الحياة نحو غفوتها الأولى

وتنسى ما حفظت من الرضا

إذ يتبدى لك ..

أن الحياة في شهوة القوم الغافلين

وأن الكشف عن معناك

معادل أن تبقى رهين ..

للنزوات ، للغرور التافه

للطين

ألقى حمدان نظرة تتنوع فيها إلتماعة العيون كأنها تفرز الألوان وتصففها . ثم وجه حديثه إلى مكاشفي متسائلا :

- أهي روائع بشرى ؟

تبسم مكاشفي ثم أجابه بحسم :

- بل متاهات كمال .

استدرك حمدان قائلا :

- آه بالطبع ، كيف فاتني ذلك ؟ فكمال هو الذي يرى أن الايمان بشيء لا ينبني إلا على كفر بآخر .

مضى ذلك البؤس الذي يعتري الوجه بعد التثاؤب مباشرة بعدها علق سانتينو هازئا :

- مسكين دكتور بدوي الذي يصيبه المرض . إن صديقه كمال تولول منه الجراثيم .

قهقه حمدان بعمق بعد تعليق سانتينو . فكمال في نظره منوي الشياطين . لم يسرف مكاشفي في الضحك وربما قطعه ليقول :

- البصيرة تغدو نار الله في الدنيا إن تفتحت في أعماق تخلو من بارئها . إن غربة كمال كانت الزاد لطريق وعرة ومنبوذة . طريق البعث الروحي والخلق . ثم أصبحت بمرور

الزمن حالة صوفية يصعب التداوي منها . هنالك مدونة شعر أخرى . اقرأها يا حمدان وانظر إلى أين ذهب بشرى بآلام السكون الذي تستوحش فيه الذات .

قلّب حمدان في أوراق مكاشفي قليلا ثم همهم بارتياح إثر عثوره على المدونة . ثم قرأ بنبرة رحيمة :

هدأة البحر صوته الحق

حين نسمع ريبة الأعماق

وكالماء نتجسس في عروق الأرض

حين لا نجدف رهوا في الرياح

فالعواصف أشباح ما نطرده من غموض

بمجرد إنتهاء حمدان تابع مكاشفي قائلا ببعض الإنفعال :

- إنها ذات التخوم التي تلفت عندها كمال . وقطعا تألم بشرى للغاية . فعند هذه التخوم الجسد يستغرب أعضاءه . الحس يستغرب أحاسيسه . العقل يستغرب أفكاره . وهكذا . إلى أن تصبح الدنيا كلها غريبة عليك . فقد سقطت الذات في مدار جديد . ولكن بشرى حمل ألمه بطغيان ومضى إلى الأمام . والأمام هنا هو الله . فإن وصلت إلى هنا والدينونة ليست في نيتك . فلن تعود إلى حياتك الماضية أبدا . العبور بلا سفينة مشوار البحر وحده .

أضاف حمدان لامزاً وكأنه يشرح لسانتينو :

- الدرب من هنا لعجاجة الشياطين .

تأمل سانتينو وجه حمدان بعيون الكجوريين التي يكرهها . ثم قال له :

- الشيطان أخلص من شيخ الكجور في رعاية أتباعه .

القرف الذي اجتاح حمدان أكّد أن الملامح ليس لها طابعا . بل مخزنا تتسلل منه وفق حالة الشخص النفسية . فقد تبشّع الوجه الذي كان صاحبه حمدان لدرجة الإستبدال . ثم أجاب سانتينو بغيظ :

- هذا في البداية فقط . ولكن بعد ذلك ستحل الرمضاء مكان قدميك .

أضاف حمدان تتمة : يا خنزير . بصوت متخوف بعض الشيء . فلو أسقط سانتينو أو صرح الشجار ذلك طوبة واحدة عليه لهلك . ولكن سانتينو يتعامل مع أمثال حمدان بعفوية

مطلقة . نعم ، كما يهش ذبابة تحديدا . فقد تجاوز إندفاعة حمدان وقال له مهاترا وببرود :

– أنت لم تجرب رمضاء الدماغ يا حمدان ولا دعوى لك بذلك . ورقبتك هذه لا تمدها إلا لخلع جلبابك . أما من أجل التطلع وإلقاء الأسئلة ؟ فلا ، أو حرام لا أدري . لأنك تحفظ إجابة لأي سؤال كان . حتى تلك الأسئلة التي لم تولد بعد . ربما كل الذي فهمته من حديثكما أن كمال محسوب على تلك الحالة الشاعرية التي تحدثتما عنها . ولكني أجزم يا حمدان على أن إيمانك ليس من النوع الذي يعنيه مكاشفي . وأنه لو قدر لك أن تذهب إلى حيث توجد هذه الحالة . لنسيت ما تحفظه من الرضا . ولركبت معنا درب عجاجة الشياطين ذلك .

سانتينو ماكر يريد أن يتوّه حمدان في معارف النوراني . ولكن حمدان لا ينقصه الخبث . فقد ترك التصوف في حاله ورد بلؤم . مركزا هجومه على سانتينو فقط .

قال له :

– أنت مادي ولن تفهم الأشياء إن لم تكن طوبة أو يمكن وضعها في الجيب . وكل الذي تعرفونه عن تنظيم الحياة الجمعيات التعاونية مع تصور لتوزيع السكر . وإن تكلمتم عن تعايش البشر في الدولة فكما تتكلمون عن تعايش البكتريا في المعمل . ما الذي يحشرك يا سانتينو في قضايا الروح والدين وأنت تعيش كالبهيمة بلا أخلاق وبلا شرف ؟

عندما جاء حمدان على ذكر الجمعيات التعاونية خنق الضحك سانتينو . ولكنه أسرع ليقاطع خطبة حمدان بما يدل على الاشتراكيين الذين يدعيهم . قال له بحنق مفتعل :

– اسمع يا حمدان إن الانسانية نفسها تعاليم . ولا تحتاج لأي مهووس منكم كي يعلمنا كيف نتبتل . أما الشرف الذي تتحدث عنه فأنا لا أهتم به . طالما أنه قيمة إجتماعية لا علاقة لها بتفكير الفرد . الأمر الذي أجهله وأريدك أن تشرحه لي هو قضايا الروح .

ماهي هذه الروح وما قضاياها ؟

على حمدان أن يتلفت فالسؤال هنا للتلفت وليس للإجابة . ولكن حمدان زاد على التلفت أن قال :

– إن الله لم يخلقنا لنجيب . وإنما لنسأل ونصقل موهبة التساؤل هذه بالتسبيح ومن ثم الدينونة للسماء . الله وحده العليم بكل شيء .

لقد كانت إجابة موفقة وشجاعة بالنسبة لرجل مثل حمدان . أضاف مكاشفي :

- نحن لا نسأل من الخارج لنعثر على إجابة . وسؤالنا عن الروح ما هو إلا إستغراب الروح لذاتها . إن الخيال البشري محدود ورهين لما هو داخل الدنيا . ربنا المنزه وحده الذي يمكنه أن يتحدث من خارج الدنيا .

لم يبد على سانتينو الإنتصار . فقد تمتم بوهن :

- الأسئلة الصعبة كلها عليها أن تنتظر القيامة . والقيامة نفسها عليها أن تنتظر القيامة . إننا نخدع إذن . في كل شيء نخدع . لا شيء يمكن الاعتماد عليه .

صمت سانتينو لبرهة ثم صفع الجدران بيد مغتاظة وأضاف :

- إن هذه الجدران هي سبب التفلسف . فلو أننا كنا بالخارج فقطعا كنا سنجد ما نفعله غير التحديق في بعضنا هكذا وانتظار خروج الحياة في كلام .

أجابه مكاشفي مع ضحكة تحسر :

- لقد كان عليك أن تصفع جدران الطين التي يقبع محتواك بداخلها . هذا هو السجن الذي تعانيه . أنت لا تحتاج إلى نزهة . وإنما إلى انعتاق وتطهير . وعيك هو المشكلة . والناس بالخارج تهرب من وعيها إلى الغابات .

تقلبت ملامح وجه سانتينو كأنها تبحث عن دواخل متصالحة لأناس كثيرين .

وقال بيأس :

- أحيانا أتمنى لو كنت لا يعنيني شيء . لو كنت لامباليا ككمال . إن تعاويذ الدينكا ما فيها شيء . والذي يقيهم هو ما تمنحهم إياه من لا مبالاة . إن آلام الشعور بالعجز كريهة ولا تطاق . الناس تحتمل رائحة الجسد المتعفن . أما رائحة الطاقة المتعفنة داخل جسد سليم فلن يحتملها حتى الحواة .

ربت مكاشفي على ساعد سانتينو وقال له :

- إن آلام الشعور بالعجز ظاهرة صحية ويجب رعايتها . صديقك بشرى يقول :

رحيم ألمي
إن كان أشياء الحياة
وبذرة تطعن سطحي
لأجل نبتة جديدة
على امتداد طينتي
وفي دروب اليأس البعيدة
حيث الحنين الزائف
وارتماء الريح في الأحضان
بكيت بلا سواحل
إذ أحسست قلبي بلا لوعة
ويرتع فيه الصقيع
وجروحي ترقد بورا
ولا يبهرها النقيح

أخذت بعض الظلال تعبر النافذة المفتوحة ثم تتبدد في أزقة المسجد . اليوم جمعة وتلك الكئيبة أشباح المصلين . وجوههم مبهمة وعالق صمتها بالأبد . يندس الأسى خلف حيرتها فتعبر في برود . الحر والسجن والأسئلة . الحياة أفضل طريقة للعذاب . ولكنهم يريدونها . فليكن الله في عونهم .

نظر مكاشفي إلى ظل غرفته بحثا عن الزمن . فكل ماهو مخلوق فاني . وكل ماهو فاني محفظة مواعيد . الله وحده الدهر . استوى حمدان واقفا ثم نفض ثيابه قبل أن يتطلع إلى الغيوم ويقول :

- لن تمطر في هذا الحر .

عندما بلغ حمدان الباب علق سانتينو على عبارته قائلا :

- مطر هذه البلاد أوسع من سمائها . وأرضها أرحب مما يزرعون . ولكن هنالك شيء ما أو لعنة لا نفهمها .

هز حمدان رأسه كموافقة ثم انصرف كي يستعد للصلاة . أما سانتينو فلبث حينا من الوقت بلا واجب . واقترب بعد ذلك من مكتبة مكاشفي بحركة تعبر عن الاستياء بكافة

أشكاله . وقال لمكاشفي وهو يسحب كتابا بطريقة فيها إلمام بموضع الكتاب :

- حتى قراءة الكتب لم تعد تدفعنا إليها الحيوية . وإنما الاكتئاب ، الاكتئاب وحده والمؤذي . يا للكساد وقلة الحيلة .

كان مكاشفي قد ارتدى عباءته وتعطر . تأمل وجه سانتينو بشفقة لا تحتقر الإنسان وقال له بلهجة نصح أبعد ما تكون عن الوصاية :

- إن كنت تريد راحة البال فابحث عن الإيمان يا سانتينو . الغيب له اعتباره لأن افتراض الإنسان أصيل في الحياة . فكل ماهو دنيوي خلق كأخلاط وتركت تنقيته لعامل خارج هذه الاخلاط . للإنسان . والإنسان نفسه خلق كأخلاط وتركت تنقيته لعامل خارج هذه الأخلاط . للإيمان .

لعل سانتينو قصد الفكاهة حينما أجاب مكاشفي ضاحكا :

- العيب الوحيد فيما تدعونني إليه أن الشماليين هم وراث الدعوة .

أطلق مكاشفي ضحكة شفيفة ثم التقط عصاة الخطبة وخرج متعجلا . ثم نادى في سانتينو من خارج الغرفة مذكرا له بإغلاق الباب عندما يفرغ من مطالعته .

المسجد كان مزدحما وصوت المأمور يقرقع في أنحائه كالنهيق والجعار وكامل جلبة القطيع . فقد اعتاد على أن يصلي الجمعة مع المساجين كنوع من التواضع . ولكن سبحان الله الخاصة بالمأمور أكثر وأهم من أي سبحان الله تخص أحدا آخر . لذلك لا بد أن يقولها بصوت أضخم من آمين التي يتكاتف عليها المصلون كلهم . يباغت بها من حوله كأنه يريد أن يفزعهم .

بشرى لا يتململ أثناء الخطبة أبدا . فخطبة مكاشفي لم تكن وعظا . وإنما دعوة لإكتشاف الموعظة وتأمل السلوك البشري . لأن مكاشفي يؤمن بأن الموعظة لا تنتج أحدا . وأن الإنسان هو الذي ينتج المواعظ .

خطبة مكاشفي بالنسبة للفليل ذكرى معدلة تربطه بالأيام التي كان يشهد فيها صلاة العيد مع أهله . لذلك لم يكن يفرط فيها إطلاقا .

بعد إنتهاء الصلاة استوقف السنجك مكاشفي وناقش معه بعض الأمور . وإن لم يكن يبدو على مكاشفي الإهتمام بما يقوله السنجك . إذ أن مكاشفي يؤمن بأن الأفكار والملاحظات ليست هي الحقيقة . فالحقيقة تتجلى ولا تنتظم . تدرك ولا توصف من خلال

بيانات . ولا بد أن تنتهي جهود السنجك في مطاردة الحقيقة من خلال رصدها . إلى ما انتهت إليه جهود صاحب الطواسين . وطواسينه التي كانت كأفراس النهر . لا يركبها أحد ولا تجر المحاريث .

فمكاشفي صوفي لأن بصيرته متقدة . وليس نتيجة لإضطراب في عواطفه . وهو ممن يعتقدون بأن عقائد الحلول والإتحاد هرطقة لا تمت لمعرفة الله بصلة . فالله كائن حيث لا يكونه شيء . وماثل كيفما لا يمثله شيء . وهو كما قال عن نفسه : كل يوم هو في شأن .

الفصل الخامس

النهار كان عائما وليس به ميل إلى شروق أو غروب . رهط من المساجين جلسوا يتدفئون بأنفاس بعضهم البعض . والمياه تهطل عليهم من كل أزل وأبد . كأن المطر أصل الوجود والدنيا هي التي انحشرت فيه . مطر يسقط على الأرض وله تيار كالنيل . لم يجلسوا كأشخاص حقيقيين . بل كانعكاس لصورتهم في ماء نهر . غارقين وترجهم رجفة المياه المبرقعة بأشعة الغروب . تعرجات التيار تغوص بملامحهم إلى القاع ثم ترمي بها إلى السطح من جديد وهي مرتبكة في كثير من الطين والأوشاب . والنهر قد أضاف لمشهدهم في طياته خريرا بالغ الحزن والمرارة . لقد نهضوا من جسد النهر وبدأ صوتهم يطفو شيئا فشيئا جاذبا معه عنفوان التيار وخبايا الأعماق . أخذت همهماتهم تتشابك كأصوات الاذاعات المجهولة في الليل . أحدهم يقرأ على رفاقه الآخرين بصوت ملائكي النبرة :

لا للسلاح ، لا للسلاح

فأبي رحم الأرض

وأمي بعض طاحون

نصير له الرياح

بعد فراغ بشرى محمود من قراءته الشعرية قال بحرقة :

- الضابط الذي ألقى بي إلى هنا اعتذر لي قائلا : (أشعر بأنني أتفه ضابط في التاريخ). فقلت له : (بل التاريخ أتفه جندي حياكم). لقد قال لي رقيب الكتيبة آآ ..

تشتت ذهن بشرى لبعض الوقت . فتركيزه لم يكن على الكلام الذي سيقوله بقدر ما كان على تلك العمليات التي تجري داخل ذاكرته لتعثر لذلك الرقيب على اسم . وعندما يئس بشرى من تذكر اسمه ترك الرجل لموته وأكمل قائلا :

- على كل حال فذلك الرقيب قد سقط بين أيدينا وأعيانا أن نلتقطه . على جبال ليريا كفتا روحه بمزق الضباب . ومزق جسده انحدرت بها مياه الشلال . لقد قال لي عندما ألححت على القتال معهم : (ستفعل ولكنك لن توفق في السعادة بذلك). وهاأنذا كظيم وفجيعتي لا يخفف حدتها أن تلفظني كبركان أو أن تبصقني كمحيط من القيء . كم

أريقت من دماء وكانت دعوانا لا بد من قتل الكلاب كي نصل إلى سيدها . ما أقسى قلوب تلك الأيام . كنا نعبئ البنادق وفوهاتها في فم الضحية .

صمت بشرى حتى انقطعت قافلة الحزانى من الأرامل والأيتام التي كانت تمر من أمامه .

كانوا يمشون في صفوف طويلة وبين أيديهم فوانيس رخيصة يتلجلج نورها إن علت أنفاس نحيبهم ، وينطفئ إن هم تعثروا . يشقون طريق مقابر خاوٍ ووعر . ورائحة الموتى تنبعث منهم كصنان القطيع . تأمل بشرى وجه كمال بعيني مذنب قديم وقال بأسى :

- مما هو محتمل أن تندم على فقد حبيبة أو ارتكاب خطأ . أما أن تندم على حرب ؟ فهذا ندم بالغ التعقيد والألم .

أدار كمال وجهه ناحية السقف كمن يبحث عن شيء يعلق في الهواء . ولم يول ما قاله بشرى اهتماما . تنهنه مكاشفي وقال معلقا :

- يبدو أننا لن نتخلى عن الحرب .

صمت مكاشفي لبرهة ثم أضاف :

- ليت الإستعمار يعود من جديد . لنحاربه فتضمن لنا حربنا معه شيئا يفهمه هو على الأقل . أو على أسوأ الفروض لكي نموت بطريقة يحترمها الأحفاد . ولنعرف مع من ندفن .

تريث مكاشفي قليلا قبل أن يقول لبشرى :

- شيء غريب يا بشرى أن يكون هذا رأيك في الحرب وأن تكون أنت نفسك قائل :

كنا فتيانا جديرين بأنفسنا

نحارب في الجبهة

وخلَفنا بعض الأصدقاء هناك

ليونسوا الأرض

لم نحزن

فالحزن لا يقتل العدو

فقط لم نفرح

لأن الرصاص نفد

تابع مكاشفي قائلا :

- ولكن الأغرب من ذلك أنك حاربت مع الجيش ثم عدت لتحارب ضده .

أجابه بشرى :

- الأوضاع هنا يصعب معها التماشي مع سخافات جهة واحدة لفترة طويلة . الجو غير الصحي يعلمنا الكثير . ولكنه يأخذ من أعمارنا وأرواحنا ماهو أكثر .

صمت بشرى كمن يبحث عن شاهد ثم أضاف :

- المهدي حرر الخرطوم لأن رجاله كانوا يفهمون لماذا يسيرون خلفه .

كمال فنان تسيطر عليه شهوة الضياع . فالضياع له شهوة تستوطن الفؤاد أو الدماغ وربما الجسد . وبالتأكيد هنالك ثغرة تنز منها هذه الشهوة . ولكن لأنها ثغرة ضياع فلا بد أن تكون ضائعة لتتماشى مع وظيفتها . ولذا فقد جاء تدخل كمال استهزائيا كمجمل موقفه من الحياة . قال بطريقة تهكمية :

- الحمير نفسها كانت تفهم أن عليها الصمت في ليلة شيكان . ولكن هذا حدث أيام كانت الدنيا في مستوى فهم الحمير . وأيام كانت الخرافات والجهالة تمنحان الناس تصورا لكل شيء .

بشرى شاعر الإنسان يتدفق من كل ثغرة فيه . والفنان في أعماقه نقطة لا تكاد تلحظ . ولكنها نقطة من نووي تتقرفص فيها كل طاقته . لذلك كان حريصا على أن يفوت على كمال فرصة إحلال الضباب بكل شيء . فقد رد عليه قائلا :

- تعقد الأمور لن يخلق منا شخوصا هوائية ومتخاذلة مثلك . هنالك فرق كبير بين أن تصادم الحياة وتفشل . ومن ثم تتحول إلى شخصية هوائية بفعل الواقع . وبين أن تتمدد في مكانك وتقول : اسمعي يا دنيا ، ها أنا ذا شخص هوائي وأنت لا تطلبينني شيئا . كل ظلام معقود في صلبه فجر يا كمال .

- إن كنت أنا شخصية هوائية فذلك لأنه أصلا لا توجد أمور كي تتعقد أو تنحل . أنتم تفتعلون سخافات تافهة ثم تكدون حتى التقاتل لإثبات أنها أمور . ثم ماذا يحدث بعد ذلك ؟ ندمكم فقط ما يحل . الندم وحده الذي يحل يا بشرى .

انفتحت عينا مكاشفي ببطء على وجه كمال الذي كان ممدا أمامه مباشرة . ثم أطلق تنهيدة عميقة كأنها ترثي ذلك الوجه الأسمر بمحاذاة السواد قبل أن يقول له :

- إنها الحياة يا كمال . نمشي ونجيء فيها كسطل الشادوف . لا النهر ينفد ولا الأرض ترتوي .

جاء رد كمال بزعم آخر لتعريف الحياة . فقد رد على مكاشفي قائلا :

- الحياة هي أن تجد دربا تسير فيه . والوهم الذي نسميه السعادة هو أن لا تعود مطلقا.

- بهذه الطريقة تكون قد ركضت أنت ولم تسع إلى التغيير . كان عليك أن تجعل الأشياء هي التي تركض . ولذلك رغما عن كل ركضك يا كمال فقد كنت تنتظر حيث أنت .

- لا تنسى يا بشرى أنني أترك خلفي المناظر التي تقف على الطريق . الطريق يستبدل دائما تلك المناظر القديمة بأخرى جديدة . أنا لا وقت لدي لأخلق الحياة . فقط أمتص ماهو جاهز منها. أما أن يقترح الشخص نفسه كسباك للوجود فهذه وظيفة تشبهك أنت . صوفيا كانت تحب هذا المقطع الذي كتبته في فترة لا أدري إن كنت أنتعل فيها حذائي أم قطارا :

لأنك طريد

أريد أن أرى وجهك

ما أجملك وأنت تقطب بالوحشة

ونبرة الأغراب

بذعر الأنثى أحتويك

كخفايا النفس في الظلمة

ما أروع عيناك بلا وعد

في دنيا الوجوه الرتيبة

كمجرى النهر

وجوه الذين لا يطردهم شيء

دخل بشرى وكمال في حوار ملحمي عندما علق بشرى على شعر كمال قائلا :

- ولهذا فأنت لا تزال تتخبط في الظلمة كالخفاش الأصم . هذا الإحساس بالحياد تجاه كل شيء ورؤية التيه على أي خريطة كانت لا بد قاتلك يا كمال .

- إن كان السقوط حتم كل الأجنحة فكل طائر سيسقط من المدى الذي يليق به .

العصافير ستسقط من مدى شجرة . والكراكي ستسقط من طول ساقيها فحسب . النسور وحدها التي ستسقط من سقف السماء .

- ولكن لا تنسى أن القيامة نفسها ليست حصاد موت ، بل بذرة لحياة جديدة .

- دعها الغيبيات يا بشرى . أنت حاربت في كل مكان وأعجزتك هذه الحياة التي بين يديك .

- عثورنا على بداية للكون ، نسف المادية ، عدم التضارب بين نتائج دراسات التاريخ اليوم وبين روايات الكتب المقدسة التي مضت عليها مئات القرون ، إثبات غائية الكون من منطلقات علم الجمال ، نفاد النجوم والتحقق من أن هنالك إنهيار عظيم سيحدث . ألا يعني كل ذلك غيبيات ما ؟!

- مثل هذه المعارف الناقصة التي لا تبلغ بالمواضيع منتهاها أكثر مدعاة للتخبط من الجهالة التامة . صحيح أن المادية سقطت وشبعت سفا من التراب . ولكن المادية ما هي بمبررات إلحاد ليكون سقوطها مبررات إيمان . ثم إن التطور الحالي للعلوم لم ينسف المادية فحسب . بل نسف كل شيء . إن الفلاسفة ورجال الدين لن يفتوا بعد الآن إلا في كيفية دفن الموتى . الحقيقة الأخرى أن الفن وحده الذي وقف موازيا للعلوم . يمكنك أن تخبر أصدقاءك المتفائلين تجاه الحياة أنه لا حقيقة حتى الآن عدا العلوم والفن . وإن شئنا أن نبني الحياة فمن هنا يجب أن نبدأ وإلى هنا يجب أن نقنت .

- استخدام العجز عن تصور الأشياء كدليل لنفيها سقط منذ أمد بعيد . فنحن حين تقدمنا اكتشفنا أن الحياة برمتها قُدّر لها أن تكون من نقطة لا يمكن تصورها . أما الإيمان فهو حس كسائر أحاسيسنا الأخرى . وربما تدعمه كيمياء الجسد بإفرازات تخصه لوحده . إن انشتاين نفسه رفض فكرة الفوضى والكون الذي بلا غيب .

- فليرفض انشتاين كما يحلو له . نحن لا دعوى لنا برفضه إن كانت نظريته تقبل . وتلقى التأييد على ذلك من ميكانيكا الكم .

احتمال أن مسيرة الصوفي تبدأ من هنا . بعد إنتهاء الجدل والمعلومات والتخمين . فقد تدخل مكاشفي قائلا :

- ضعا العقول جانبا . من هنا لن تسير بكما إلى الأمام إلا ملكة الشاعر فيكما . إذ أن الدينونة لا تقف في نهاية شوط البحث عنها ، بل خارجه . يجب أن نتذكر دائما أن

العلوم لن تقف عند منتهى طالما أننا في الدنيا . إنها ذات المعلومات التي يستخدمها بعضنا للإيمان بالغيب والبعض الآخر للالحاد به . نيّة انشتاين الطيبة تتجلى في أنه لا يعتبر القوانين ذكية إن خالفت تصوره لقدرة الله . كان الأحرى به أن يعبد إلهه المطلق الذي يجعل النظام وريث الفوضى وغيره من المتناقضات . ويترك الآخرين لإلههم البسيط الذي يمكن تفسير ما يفعله على الأرض . إننا فوق كل شيء نعبد إلاها مطلقا لا بد أن يكون فوق زلات انشتاين وغيره . وأرقى من كل رجال الدين الذين يرعون الضوابط الدينية ويلخصون بسذاجة مفرطة ما يريده الله من خلق كل هذا الكون وكأنهم القيمون على حكمة الله . في الحقيقة يجب أن نتطهر منهم هم أولا . فنحن لا نتحدث إلا ما بصقوه من كلمات . الأمر الذي جعلنا نتحدث عن الغيبيات عموما . بلغة واجمة ومبتذلة تجعل منها كأي ألف ليلة وليلة للنوم أو مهابهارتا للعجائب . ألا تلاحظان أن السلام الداخلي تجربة خاصة جدا . ولا يمكن نقلها للغير إلا بصعوبة ؟ فلنخرج بأنفسنا إذن من أجل هذه التجربة . فلنتجول في المجرات ولنتسكع من متاهة نجم إلى آخر قبل أن نتجول في أنحاء أنفسنا . فالعثور على السلام عثور موافاة وليس ديمومة . والدنيا أرحب من دواخلنا . وخلقها كان أكبر من خلقنا .

لم يتواقح كمال كعادته . لأنه يحترم مكاشفي بهدوء ودون مبالغة . لذلك أجابه بلهجة متزنة :

- للأسف يا مكاشفي نحن لا نخرج إلى العالم الخارجي إلا لنغوص في دواخلنا بصورة أعمق مما كان . ويا ليتنا نغوص وكفى ! إننا نصبح توليفة من الثلج والنار تحترب ليحل الموت فقط . لا غالب ولا مغلوب ولا أي شيء .

أجابه بشرى :

- هذه هي النقطة التي جعلت الفلسفة تبول على مقولاتها بعد كل ثلاث سنوات . تساؤل أيهما الحق ! واقعي الشخصي الداخلي ؟ أم واقع العالم الخارجي ؟

سأله كمال بتحدي سافر :

- والحل ؟

- الحل هو أن هنالك واقع معيش ننتخبه . ودواخل الإنسان وظروفه كلاهما يحددان ما سيتم إنتخابه .

- والفائدة ؟

سكت بشرى محمود مغتاظا من طريقة كمال في الاستفسار . فتدخل مكاشفي مجيبا كمال بقوله :

- الفائدة هي أن نقبل الأمور هكذا وإلا فسنمنح د . بدوي الموافقة على أن الشر ممتع مثلما هو الخير ممتع .

استمر كمال في توجيه الأسئلة الآلية نحو بشرى الذي صمت . قال له كمال وبصوت مازح :

- والصمت ؟

عندها ضحك ثلاثتهم ثم أجابه بشرى محتجا :

- صمت لأني لا أعطي خطة لحفر ترعة . كي تسألني بطريقة المواصفات هذه ... والطول ؟ والعمق ؟ والبيارة ؟

- أسألك بطريقة ماذا ؟

رد بشرى محمود لكمال جعفر سخريته حين أجابه :

- بطريقة منتخبة .

هدأت الامطار والشمس بدت كقبلة تاهت عن فم الحبيبة . صمت الكل وتلاشى صدى أصواتهم التعبة . كما يتلاشى سعال العمال ببطن المناجم . ودوما يتلاشى حس الإنسان ليبقى شرر تقدحه المعاول في الصخر . وكبرياء للإنسان ينحته بأعماق الأرض . أخذوا يتجولون بعيدا كأضواء السيارات بوهدة الخلاء ليلا . بصق كمال بطريقة تقرف كل شيء وقال ساخطا :

- أهذا آخر كلام للحياة ؟

دخل بشرى في حوار طويل آخر وأليف حينما أجابه :

- لا تستسلم للاحباط يا كمال .

- الاحباط !؟ يا ريت . وما الذي أرغب فيه كي أحبط ؟

- عليك أن تصير شجرة فوق جدول كي تقنعني بأنك لا ترغب في شيء .

- بل عليّ أن أصير حمارا له ذنب كي أرغب في نقل الملح من مخزن إلى مخزن . رغم قروحي وآلامي . نفس الملح وإلى نفس المخزن وفوق ذات الظهر المتقرح .

- هذا ليس بصحيح . ربما مفردات الحياة ثابتة ولكن الوعي بها متجدد . الأمطار التي شهدناها أيام المراهقة ليست هي التي كنا نخرج فيها ونحن عراة أيام الطفولة . وما أغرب صوتها في السجن الآن . عند فقدان الحبيبة والجلوس في مدى الساق هكذا ولسنوات .

- مهما اجتهدت فإن الكآبة والصوت الرتيب للحياة لن يقبلا المكياج . إن الحياة كهذا السجن . الشيء الوحيد الذي يقوم المأمور بتجديده هو الأقفال والطبل . إنها تواكب الموضة فستانا بفستان . وأحيانا تتجاوز ماهو موجود من التقليعات لتأتي بها وهي تصميم . الإبتكار هنا في كيفية سجننا .

- عَرّي نفسك بالكتابة إذن يا كمال . إنها تشبه صيد السمك . وأنت أصلا مربوط إلى الضفة . وكل ما عليك هو أن تضع الطُعم على السنارة . لن تعرف إن كنت ستصيد أم لا . ولكنك على كل حال تنتظر .

- هنا سيعجزك أن تكون كاتبا لملء أرانيك الجوازات . ناهيك عن كتابة الشعر .

هبط مزيد من الضجر على وجه كمال ثم أضاف :

- وماذا أكتب ؟ أو في الحقيقة أكرر . مهما كانت الفكرة مبتكرة فلا بد لها أن تطأ على رقبة فكرة أخرى . إننا نلوص هنا جميعا .. على الأرض . وحين نبالغ نرصع مداها كالأقمار التافهة . الشياطين وحدها التي يمكنها أن تدور في فلك بعيد كنجمة مستحيلة وتأتي بالبدع .

تدخل مكاشفي قائلا :

- تأمّل ولا تكثر من التفكير .

إنه مطلب صوفي ومستعصٍ . ولكن كمال لم يضل عنه فقد أجابه :

- لم يعد اسمه التفكير فقد صرت بكاملي علفا للدماغ . أوافقك على أن التأمل رحمة العزلة . ولكن لاتنسى أن تأمل الذات هو أول طريق للحرية . يبدأ حينما يتلاعب الطفل بأعضاء التناسل فيه . وينتهي باختيار الناضجين للمذهب الفوضوي في الحياة .

اعترض بشرى بقوله :

- أبداً يا كمال . هذا طريق التيه وليس الحرية . الطريق الذي وقف الفليل عند بدايته واخترت أنت نهايته . الحرية الحقة لا بد أن تكفي الإنسان شر جسده وعقله .

صمت بشرى لبرهة تطلع فيها إلى كمال بعيون تشع كنجم فتي . ثم تابع مضيفا :

- عمر بأكمله وأنا لا أترك ظهري إلا للحذر . ولا أتقدم نحو ما أمامي إلا كمهندسي الألغام . ولكنني حر لأن ذلك لم يعوقني عن الاكتشاف والمقدرة على الحب .

أجابه كمال باستهتار :

- ومن يكافئك ؟ الحرية ؟ هاها .. إنها نفس حياتي مع اختلاف المطاردين وعبوءات الألغام . كان عليك أن تكتفي بأن تلعن قفا بلا عين وتشكو من غلاء الجواسيس . كما أفعل أنا بالضبط . الحرية يا بشرى فكرة فات أوانها . إذ كان يجب أن تضاف كعضو إلى جسد الحياة نفسها . وليس كأمنية مريضة في دماغ الحشرات التي تعيشها . ألم تقل يا بشرى :

إذ أحسست قلبي بلا لوعة

ويرتع فيه الصقيع

وجروحي ترقد بورا

ولا يبهرها النقيح

تابع كمال قائلا بثقة :

- إن قلبك الحقيقي يا بشرى هو الذي قلت عنه : يجوع كغابة في الظلام . أما هذا البارد فإنه جسد الحياة المتوفاة لا قلبك . وهذا هو الاكتشاف الذي تعنيه . والذي لن ترافقه مقدرة على الحب . كل الذي يميزك يا بشرى هو إصرارك على الغباء . لأنك تعود لتسير في ذات دروب اليأس البعيدة وترجع لكي تبكي بلا سواحل . قم تبوّل يا بشرى .

ضحك بشرى بعمق وشاركه مكاشفي إثر مطلب كمال الأخير . ولكن بشرى ابتدأ به قائلا وبوقاحة كان يقعدها التهذيب لا العجز :

- قم لتتبول أنت يا كمال . لأنك تفهم الحرية على نحو معكوس . الحرية إرادة وفعل تجاه الأقدار . أما لو كانت حتما أو عضوا في جسد الحياة نفسها كما قلت . فهذه هي العبودية من ذنبها إلى قرونها .

قال بشرى كلامه ذلك ثم نهض ووقف عند مدخل غرفته . دفع بيديه خارجا وأخذ يتلقف بهما الرذاذ كأنما يتحسس أخبار البلاد التي أتت منها الغيوم . هذا مع أن غرفته هي المكان الوحيد في هذا السجن الذي له خصوصية أن تأتيه الصحف اليومية بعد شهر من صدورها . يحضرونها له من أيادي باعة الترمس والتسالي بعد أن تعتت مواضيعها

ويشارف سعرها على المجان . وهذا إكرام لبشرى لأنه سجين سياسي . أما الآخرون فلن تهمهم أخبار الدنيا .

بشرى لا يتشكك في أن أي فكرة ناقصة ماعدا فكرة الحب . ولكن مما هو محتمل أن فكرة الحب نفسها ليست كاملة وإنما ألفها تفكير الانسان . والغموض نفسه لا ينحصر في فقدان المعنى للأحداث الغريبة . وإنما في سؤال ما هو المألوف ؟ كي نأتي بعد ذلك ونسأل : إن كان الطبيعي ليس ما نألفه فماذا يكون الطبيعي إذن ؟ سيترك بشرى هذه المغالطة لأن كمال ليس بمقدوره حتى أن يكره . إذن يصبح السؤال : هل عند هذا المتقطع تصور لما يجب أن تكون عليه الحياة بالفعل ؟ أم أنه شخص ليس عنده إلا أنانيته ورؤيته لنفسه ؟

بشرى مؤمن بحق وعن دراية وفتح من الله . وإن كان لا ينكر أن الزواية التي يجب أن ينظر بها إنسان اليوم لنفسه والحياة . لا تزال هندستها مرفوضة ولا يعمل من أجل ترقيتها أحد . مما يجعل الأمور كلها طين في طين . خصوصا بالنسبة لأشخاص عاشوا أكثر مما تربوا . فلا عجب أن يتلوى كمال كالمريض ثم يقول :

– هذه الطاقة الخاملة لا تعرف ماذا تفعل بنفسها . إنها تمرضني . ماذا أفعل إذن ؟ لا بد أن أمرض . إن حياتي يوم من المرض الطويل .

مكاشفي يدندن بلحن صوفي ينبعث من تكوينه كعزف موسيقي بعيد ويتريث في إعلان نفسه .

أبلغه كمال حسده له بقوله :

– ما الذي يمكنه أن يذبحك يا مكاشفي ؟ إنني عاجز حتى عن التصويت ناهيك عن اللحن .

انطلقت من مكاشفي ضحكة كفضيض الجدول ثم أجابه :

– أي زمن لا نجد فيه شيئا نعمله يعتبر شيخوخة . الذي يذبحك أنت هو الكبرياء. الكبرياء الذي ليس من أجل أي شيء . اللهم إلا من أجل أن تلقى حتفك وأنت تلعن الحياة والقبر .

أدار بشرى وجهه على نحو سينمائي . بالفعل هو يشبه أولئك الأبطال الذين يجسدون سينما التاريخ الضاري والحربي . ليس قمة الجمال ولكن قمة الاقناع . ذات الرجال الذين

ينبعث دخان البارود أمام وجوههم . وتركض من خلفهم خيول الثأر والقتلة على طول دورهم في الحياة . فارع الطول ووضيء . تظلل عينيه هالة خافتة كشفق السحر .

قال لكمال :

- إن ما تشعر به إستياء جسد . بعيد كل البعد عن كونه مرضاً حقيقياً . في عزلة مثل هذه تتمرد الروح . والجسد يصبح لها الطابور الخامس . اصمت بالله عليك فأي شيء ينتقل في الفراغ بسهولة . حتى العدوى .

خشخشت ضحكة في صدر كمال كصوت الطواحين التي نفد طحينها . فأخذت تحمّل على حجارتها ملقية بنفسها في قَدَر الطحين . قبل أن يقول :

- إن إغلاق الفم لا يعني إغلاق الاحتجاج . فلو كان التذمر إحتجاجا فالهدوء الأكثر مما هو طبيعي أيضا إحتجاج وألعن من غيره .

تدخل مكاشفي قائلا :

- الإنسان يبقى حيا لأنه لا يرضى عن حياته قط .

قال بشرى وكأنه يردع عدوى كمال :

- ربما في زمن ما يا كمال . كان يخيفني إحساس أن الإنسان يقف في الحياة كالجسر بلا غاية . فقط من أجل أن يبلغ الناس والدواب والأشياء غاياتهم . لا بد أنني كنت أنانيا وأنظر إلى الحياة من خلال نفسي .

رد عليه كمال بلهجة ضاحكة :

- اعترف يا بشرى لن يفيدك دس الأمراض وتربيتها . لن تكبرها وتجعل منها أطفالا صالحين .

كمال كان لا يزال متفرعا كبيت العنكبوت . واهي ولئيم . ملامحه فيها لكنة أجنبية . وتتميز بأنها رجراجة وتجيد لغات كثيرة لسان أمها عدم الرضا . يزيد طوله على القصر بالقدر الذي ينجيه منه فحسب . جماله من النوع الذي قال عنه الفليل : يتلخص في عينين وحشيتين يملأهما جنون لا قرار له . تأمله بشرى على هذا النحو قبل أن يجيبه قائلا :

- ليس بمقدور أحد أن ينجو من الأحاسيس السالبة . ولكن الذي أريدك أن تفهمه أن الإنسان يدمن أحاسيسه . فلو أنه أكثر من تعاطي أحاسيس الألم واللاجدوى والقلق والحنين المبهم . أعياه أن يقلع عنها .

ضحك كمال وردد ببطء :

- هنالك شيء يدعى مارقوانا الحس إذن !؟ .. ياه .. مارقوانا الحس . إذن أنا أدخن أحاسيسي . ولذلك فهناك زيت كندى التبغ الذي ينز من اللفافة تحت تأثير النار .

أفرغ كمال كل ما في صدره من ضحك ثم أضاف :

- نحن للأسف نعتبر أن أحاسيس الندم والقلق والحزن من الاحاسيس السلبية وغير المرغوب فيها . بينما موضع تلك الاحاسيس من الإنسان كموضع المحرك الاحتياطي في الطائرة . هي وحدها التي تجيب على سؤال لماذا لا ينتحر التعساء ؟ هي وحدها التي تثبت أنهم تجاوزوا محرك الرضا والاستقرار وأوهام السعادة . إلى محرك آخر وذي كفاءة مماثلة . الأحاسيس لم تخلق على نحو زائد . وكلها ضرورية . حتى إحساس الانتهاء من التبرز ضروري وربما يموت الإنسان لو فقده . كل الأحاسيس ضرورية يا بشرى وفي المكان الذي اختارته لها الأقدار .

أشرق وجه مكاشفي الوسيم بعكس كل مقاييس النساء . وجه يفتنك جماله . وفوق ذلك لا يكون بحوزتك دليلا واحدا على ذلك الجمال . جمال يلازمه الغموض . إذ أنه ينبعث من سحر الموجود نفسه . ذلك الجمال الذي يمليك هو روعته ولا يمنحك فرصة لتسمّع أنت أمامه ما تحفظه عن مواصفات الجمال . كما يفعل كل الذين يقفون أمام موجود أشيع عنه أنه جميل . وجّه حديثه إلى كمال ولصوته نبرة المحاريب آخر الليل . قال لكمال وهو يجرد أصابعه مسبحا :

- حكمة الوجود كحكمة الجنس . اللذة والقذارة يقدمان في طبق واحد . المحاريث نفسها ولكن يختلف الحصاد . وأن هكذا يجب أن يكون هنالك إله بإمكانه إعاشة المتناقضات في عضو واحد . المسألة هي أن نؤمن بأننا لن نكف عن إحتياجنا للسلام .

همّ بشرى بقول شيء ما فانخلعت من وجهه هالة كفقاعة الصابون وانطلقت خارجا تطارد الرذاذ وقوس قزح ـ علبة ألوان المطر ـ ولكن كمال سبقه إلى الحديث قائلا :

- صدقني يا مكاشفي إن قلت لك أنني ربما أؤمن بالشعر أحيانا . ولكنني لا أتذكر أي شيء آخر . ولا حتى نفسي .

أجابه بشرى بعد أن ألقى بشيء كان في يده :

- الإيمان محصلة الارتباط . الارتباط بالوطن أو بالحبيبة أو بالحلم أو بأي شيء

يتطلب منا أن نحافظ عليه . أو بمعنى آخر الايمان محصلة الحب . إن الايمان في معناه العميق ثمرة الولاء . وأنت قد نفضت باطنك من كل هذا يا كمال .

لم يزعج مكاشفي تجاهل كمال لكل الأشياء الأخرى التي يمكن أن يؤمن بها الشخص . فهو رجل ينقل رحابة الدنيا إلى حيث يجلس . بل وجّه حديثه إلى بشرى مصححا :

- كمال جاء تحرره من الدنيا لأنه فشل في الإرتباط بها وليس لأنه لم يرغب في ذلك . لأن التحرر الكامل من الدنيا إن أتى بإرادة صاحبه كاختيار وليس كفشل يكون أعمق الإيمان .

استغل بشرى هذا الكلام ليقول لكمال :

- إذن أنت رجل من نصيب الدنيا وهي لم تدخلك في حسابها . اخلع نفسك مما أنت فيه من ضباب فأنت رجل لك مستقبل .

أجابه كمال ساخرا :

- مستقبل ؟ لا ، أنت تقصد أن لي متأخرات أيام أعيشها . هل تصدقان لو قلت لكما أن فكرة الإيمان عندي لا تزيد على كونها فكرة إعجاب بشيء ما لفترة من الزمن ؟ أحيانا تجرفني بعض الآيات بصورة مؤثرة للغاية . وأجد نفسي أحن إلى أشياء ذات دلالات عجيبة . تبعث في نفسي رهبة حزينة كلما سمعتها . كمواقع النجوم وأبراج الشمس ومنازل القمر وجانب الغربي والساهرة .

ربما اصطفت مجموعة من النجوم الهائلة أمام عيني مكاشفي . فقد أغمضهما بسرعة ولوجهه تعابير من باغته ضياء باهر . استسلم مكاشفي لضوضاء النجوم التي أنارته ونسي كمال الذي يبحث عن بلاد تنجيه من العذاب ولا تسأله الإستغفار . لقد ترك مهمة التشاجر لبشرى الذي دخل في معركة جديدة مع كمال بقوله له :

- كعادتك دائما تترك الدلالة وتطارد طيفها . حتى فنك يشبهك . عبارة عن تيه بلا نهاية . ولا يعني إلا الخطى التي تنفق عليه .

أجابه كمال وفي فمه ضحكة بائسة :

- لماذا لا تسميه مطاردة يائسة لمكنونات الوجود والإنسان ؟

- كلنا نسمع وكلنا نحس ونرى يا كمال . ولكن المسألة ليست أن نفهم الأمور كما هي عليه . بل أن نقدر الخطوة التالية للأمور . الفن ليس في تصوير ما هو غامض . وإنما في

تحميضه وتوليد المعنى مما هو وهم .

- وماذا عن توهيم ما هو معنى ؟ أليس بفن ؟ أنت هكذا لا تتحدث كفنان يا بشرى . وإنما كمهندس ترع بالفعل .

- بل أنت الذي تريد أن تجعل الفن كمروج دجال ينادي بأمكر مميزات السلعة . أما باقي مميزاتها التي لم تذكر فلا جدال في أنها مقدار خسارة من يشتري . أنت لا تريد أن تخلص لشيء حتى وإن كان الفن . فلو أنك أخلصت لفنك لكان الآن قد تخطى حدود العالمية وأصبح من الإرث الانساني الخالد . إن بحثك الدائم عن الحرية يزيد من سجنك ويعمق فيك أحاسيس أنك سجين .

- أنا لا يعنيني من الفن إلا الإستمتاع بمميزات الفنان . فلدي إعتقاد بأن الفنان تنتمي إليه أطراف لا يعيها . وفي ذات الوقت يعي ما تحسه . أما التفرغ لتعبئة الفن ووضعه في العلب المناسبة لتصديره للآخرين فهذه مهنة لا أريد أن أمتهنها . والفن نفسه يصيبه منها ما يصيب الكتب المترجمة من فقدان حيوية وأصالة . أنا سجين للكتابة في الدواخل وتوطين الشعر في الأحاسيس . إنني شاعر ولست مذيع شعر .

- ولكن الاكتفاء باجترار أحاسيس الفنان يجعلها تنفد . فلا بد للنار التي في أعماقنا من أن تتنفس . سأقول لك كلمة أكثر الناس من استخدامها كمبرر للعجز لدرجة الابتذال : كن واقعياً .

ضحك بشرى ثم أضاف ساخرا :

- ولكنني لا أقولها لك كما يقولها حبيب لمحبوبته الطموحة كي تغفر له فقره وتسامحه على أنها لن تتعشى في مكان فخم . بل لتكن واقعي لأن الشخصية الأسطورية وهم فاحش . لو طارده النيل نفسه لاستحال خلفه إلى سراب .

- خطأ يا بشرى . العبقرية ، الإبهار ، التأثير الخفي ، الجنون ، السطوة ، التجديف . مميزات الشخصية الاسطورية كلها حقيقة . نحملها في أعماقنا ونتهجاها قبل النوم في كل ليلة . الشيء الوحيد الذي يمكن نعته بالاسطورة هو إنزالها إلى الواقع . وهذا لا يلغي حقيقة أن هنالك من يعبرون بها شوارعنا وفي أجمل مارش . وإنما يشير إلى محدودية من تأسطروا بالفعل . الأمر الذي جعل الواقع على هذا النحو الأليم . هذا زمان البشر العاديين ، اليرقات ، المسخرين لحفر المراحيض وملئها .

- الأسطورة الحقة لا بد أن تقضي على نفسها يا كمال .

- فليكن . ولتحاسبها الشياطين بعد ذلك .

أتاهما صوت مكاشفي من زمان خلا من حينه وما فيه . لا يعلم إن كان بالمغيب أو الشروق . فشموسه عند البرزخ . تخرج من الحياة وتعود إليها في حركة لا نهائية . نارها من سر . وأوانها يخطر في روح ككائن . ابتدأ مسبحا :

- سبحانه إلهي . لا ينقطع رجائي فيه لمعصية . ولا تغرني أمامه طاعة .

تنفس مكاشفي بصدر يبلله الرضا كحقل ساعة البواكير . ثم قال :

- كل ما يمكنني قوله هو أن الإنسان هذه النقطة المنقطعة والعقيمة كما نتوهم . تعج بمساحات من الأفق لا حدود لها . مساحات تبلغ به ضباب القمم الباردة للأساطير أحيانا . وأحيانا تجوفه كمعبر للرياح . أما الإنسان الذي يخدم في أنحاء الروح . فله فوق ذلك . له كل التمرد كبرياء النار . وكل الغربة مسكنة الطين . وإن كنا نحن المتصوفة نعتبر أن تأمل الجمال أصفى العبادات وأفضل من صلاة الدهر بطوله . فلن يكون الشخص الذي يخدم الروح ضد مبدعه أبدا . والفن الحقيقي كما أفهم . هَمّه الجمال المؤنسن وما أمكن من حكمة . وإن كان بين قدامى المتصوفة والمرأة قطيعة . فما ذلك إلا لأنهم إتهموها بإلحاق نزوات بالجمال هي ليست من حقيقته . أما الحقيقة التي يكشف عنها الفن فهي غائية الوجود ومعناه . أي الدرب إلى الله . وفي تقديري أن الشاعر نفسه هو ذلك الايمان الأصيل الذي فقده الكون . الذي أقوله لك يا كمال أن الجمال يستمد بقاءه من التعبير عنه مثلما يستمده من الإحساس به .

أضاف بشرى متعجلا قبل أن يسبقه كمال :

- ربما أنت يا كمال تبغض مراسيم الاشتراكيين للفن . ولكن مثلما أن نوايا الاشتراكيين الطيبة تجاه الفن لا تخلق الفن العظيم . فمقدرات البرجوازيين المستهترة وحدها لا يشوبها القصور فحسب . بل هي تشوه الفن والإنسان .

تململ كمال بضيق ثم أجابه ساخطا :

- أنتما لا تريدان التخلي عنما تحفظانه لكي تناقشاني كموضوع مختلف . دائما تصران على المعنى ومثل هذه الأفكار . إن المحاريب لم تعد قبلة أحد . وإنما الناس تهرب من عارها وخوفها لتختبىء في الصلوات فحسب . أما الإنسان فقد انتقلت أميته من

الجهل بالقراءة والكتابة إلى الجهل بالمعرفة التي يحملها . ربما خصتني المشيئة بطبع مؤسف . ولكن هذا لا يهم . فميلادي كان الدرجة الأولى من سلم العذاب . ومنذ ذلك اليوم وأنا أرتقي جهنم تلو جهنم نحو ذروة العذاب . الأرض تبعد وما تخفيه المجرات لا يقترب . أو كما كتبت لصوفيا :

الأرض لا تتسع لسهومي

والسماء ترعى الإنتباه

ثم هكذا صارت الحياة عندي أرخص من حنيني إليها . أو ربما استسلمت لفكرة أن تحياني روح أخرى . أنا الآن أشبه بفارس انجلت عليه المعركة وفي قفاه ألف رمح . ولما تيقن من موته قطع عقال فرسه وقال لها : انطلقي وكوني ذكراي في البراري .

ربما مثل هذا الحصار يضني . ويستنفد مؤونة الشخص حتى قبل أن يمسها . فأمثال بشرى ومكاشفي لا يرهقان كمال بموجب المعرفة وحدها . وإنما بالرصيد الضخم من النزاهة وعرق التجربة . فقد ركض كمال في حياته الماضية دهرا ثم أدركته الريح . كجواد لحظة فزع . ركض ما شاءت له النجاة أن يركض . وحين دخل السجن وظن أنه اجتاز دائرة الرعب . تحولت لحظة أمنه إلى لحظة يتداعى فيها التعب واللهاث .

والحقيقة الثابتة أن الكون يبتعد كل يوم عن أولاه . يبتعد جسدا وروحا .

والكون لا يشبه القطار ليبلغ أحلام المسافرين .

الفصل السادس

من وثائق سلامة

التداعي الأول
الرجل الأميبي

- بلدي ؟ إنه طاحون هواء حين يعز الهواء . إن البدائية جين معتبر جدا في التوريث الإفريقي .

- ولم لا تعتنق جنسية هذا البلد ؟

- أعتنق ؟ ياه ، إن أمريكا دين جديد إذن ؟

- أليست قديسة هذه الأمريكا ؟

- فعلاً قديسة ولكن بلا معنى . أو على الأقل ليس لها معنى بالنسبة لي .

- أشعر بأنه حتى أنت عند نفسك بلا معنى . ربما أنت نفسك طاحون الهواء حين يعز الهواء . أحياناً كثيرة أفكر فيك فأجدك الرجل الذي استقال من كل شيء حتى من واجبات شخصه . ألن تقف يوماً عند محطة ما يا كمال كي تعثر على شيء له معنى ؟

- لقد قرأت في إحدى القصص أن مخترعاً قام بصنع قاطرة تسير بسرعة فلكية . وما عاب تلك القاطرة أن المخترع فشل في أن يحتويها بمحطات منتظمة .

صمت لبرهة قليلة فسألتني صوفيا :

- وماذا حدث ؟

- لا شيء . وليت الكاتب تركها عند هذا الجفاف كأي إعلان عن إختراع فاشل . فقد تحول إلى ميكانيكي وانحشر تحت قاطرته تلك ليبحث بدراية الميكانيكي العادي مسألة الكابح وأنابيب الزيت وغيرها من الشؤون التي تخرج بالقصة من محيط الابداع الأدبي وعمقها وتدخلها الورش كأي تدوين لمعالجة هندسية أجريت لوابور متعطل . ثم ختمها بأن القاطرة انصاعت للمحطات وفرح الإنسان واحتفل .

- وما الذي في ذلك ؟ فالتبشير بفوز الانسان في صراع الزمن واضح وجيد . وهو هدف له معنى كما أفهم .

- لا تكوني غبية يا صوفيا . إن الآلة لن تحسم شيئاً . هي ليست السلاح . بل حين تتعين الآلة كليةً كموظف تعمير يتفرغ الإنسان المبدع للجنون . أما الإنسان العادي فسيوظفه السعر . إنها تلعب لكي تكسب هي نفسها ولن ترمي بالأوراق الرابحة في جيوبنا أبداً . كما

أن الإنسانية تجاوزت ذلك الإنسان الذي يريد أن ينقل متاعه وجسده . إلي الإنسان الذي يريد أن ينقل ذاته . قصة هذه القاطرة بدأت من حيث وصلت الإنسانية . وهذا رائع كي يليه تصور يتولد من مغامرة السفر على تلك القاطرة التي لا يمكن إيقافها . ولكن الكاتب فسد تماماً حين صار فني قاطرات . كان عليه أن يخلق لهذه القصة أرجلاً ما كي تمضي على نحو غير ذلك . لقد بدأت من حيث رُفض اللجام . أي من أمام القطار . ولكنها للأسف انتهت بقطار له ذنب كي يشده أحد الرعاة من الخلف . لقد أطلق على قصته اسم السفر المجنون . ولكنه لم يكلف نفسه استكشاف ذلك السفر . وصيانته لتلك القاطرة تعزل القصة عن اسمها وفحواها . أو فلنقل تلغي إدعاءه الأول وتجعلها السفر المحفوظ .

- إنّ المُضي إلى الأمام بدون تحكم إنفلات خطر . والذي يفلت من جاذبية المدار لا بد له أن يحترق .

- الشهب أجرام ألقت بنفسها خارج المدار . منها ما يحترق هذا صحيح ، ولكن منها أيضاً ما يبلغ الارض ويستقر .

- يستقر في شكل رماد .

- لا بأس هكذا هي الأيام دوما لا تصالحنا إلا على بقايا الرماد .

- إن مثل هذا الإنفلات لن ينتهي بالإستقرار . وإنما سيزج بسير الإنسانية في فوضى الموت .

- النكتة أن تنبئك المستقبلي هذا قد أصبح واقعاً منذ زمن طويل . لقد كانت الفوضى مرتبطة بالموت بمعناه الواحد لضيق الدنيا وسعة الغباء . أما الآن فهي أقتل ما يكون . لأنها متخفية . وعلى العالم أن يبلغ الفوضى ذروتها الآن بإرادته كي يتمكن المجتمع من خلق بواعث الأنبياء الجدد والمصلحين . أما إن بلغت الفوضى ذروتها بإرادتها الخاصة ، فلن تتوقف إلا بإرادتها .

على كل فقد قمت أنا بإكمال هذه القصة كما كان يستوجب لها أن تكمل .

- ماذا فعلت بها ؟ لا بد أنك أقحمتها في قالب بذئ الأفكار والأحداث .

- انسي أمرها الآن لأنها ليست معي . ولكن قطعاً سأقرأها عليك . أخبريني يا صوفيا ماذا فعلت مع صاحبة البنسيون ؟

- فقط أنتظر أن يلقى بي خارجاً بعد أن تنتهي المهلة التي منحتنيها تلك العجوز .

- هذه العجوز بلغت من الكبر أن تداخلت كل خطوط التعبير فيها واكتظ بها وجهها حتى أصبح بلا تعبير . أو بكل التعبير لوجه لا يخصه هذا العالم . ألا تلاحظي أن الحياة عندكم يسيطر عليها العجائز ؟ شركات التأمين والغذاء والترحيل والمزارع الكبيرة والمؤسسات التي بحجم بلادي . كلها يسيطر عليها العجائز . إنهم يستخدمون حاضر الشباب ويتركونهم على أعتاب ماضي يخصهم . لا عليك يا صوفيا سأتصرف مع هذه العجوز .

- كمال .. إنك تقتلني رعباً بحديثك هذا . انسى تماماً موضوع سكني فإن عجزت عن تدبير أموري فسآتي لأسكن معك .

- هكذا .. هها ، إذن من اليوم فسأصلي من أجل أن تقذف بك العجوز إلى شقتي . لا تخافي يا صوفيا سألتقطك قبل أن تسقطي على الأرض .

- أوه .. سيكون ذلك سيئاً . على العجوز أن تلقي بي بعيداً عنك .

- لا بل سيكون رائعاً يشبه إلي درجة التطابق قصة رجلين يدمنان التدخين . كانا يجلسان في غرفة مظلمة . يقوم أحدهما بوضع سيجار في فمه ويطلب من الآخر عود ثقاب كي يشعله . يقذف زميله بعلبة الكبريت في العتمة ويتلقاها الرجل براحتيه المتشوقتين . فتصطدم بهما وتصوّت كالقبلة في الظلام . بطريقة محببة ويحتاجها الدم . يشعل الرجل سيجاره بعجلة وتلهف كي يلقي بعد ذلك بعود الثقاب في بنسيون العجوز ثم ....

قاطعتني صوفيا قائلة بلؤم وهي تناولني ولاعة التبغ :

- ثم يلقى بالرجل في السجن ويمنع من التدخين .

- لا لا يا صوفيا . فليفعلوا به مايشاؤون إلا السجن . هذه هي الخرافة الوحيدة التي يصدقها . إنه يطيق أن يفعل أي شيء مهما كان تافهاً . ولكنه سيموت حتماً إن فرضوا عليه أن لا يفعل شيئاً على الإطلاق .

- أقسم أنكم تأتون إلى بلادنا كي تجتّوا .

- هذا غير دقيق . ربما كنت ستبلغين نصف الحقيقة إن قلت أننا نأتي كي نحترف الجنون . على كل حال نحن نعرف كيف نجن ونحترف الجنون بدونكم . أريد أن أراك غداً يا صوفيا . لأنني سأكون في نيويورك بعد غد .

- ماذا تقصد بهذا التشرد يا كمال ؟

- أبداً هو الذي يقصد من حيث لا تحل عقدته ملاجئ الأسمنت .

عندما ناصفت الدموع عينيها قلت لها :

- لا تبكي يا صوفيا . المطر في عينيك يذهب بي بعيداً .

فأجابتني وهي تغالب عبراتها :

- معك حق يا كمال إن الحياة أصبحت بلا معنى .

- هي أصلاً بلا معنى ونحن الذين نخلق لها المعنى .

- إذن فقد أصبحنا عاجزين عن خلق معنى لها .

- بل هي لا ترغب في أن تمنحنا معناها .

صاحت صوفيا متضجرة :

- أي لعبة إستغمائية هذه يا كمال ؟

- إنها الإستغمائية المتوفرة وليست من اختراع رجل . فحين يستوجب علينا أن نخلق معنى للحياة نكتشف أن المعنى تمتلكه هي ولا نخلقه نحن . وحين نبحث في الحياة عن المعنى نكتشف أن معناها فينا لا فيها .

سألتني صوفيا بسخرية :

- والمعالجة ؟

أجبتها بتهكم يدوس على نفسه أول ما يدوس :

- الحل هو أن لا تكتشف هذه اللعبة أبداً . وإذا اكتشفتها أن لا تسأمها . وإذا سئمتها أن لا تبحث عن غيرها . أما اذا تجاوزت كل هذا فإما أن تصير الرجل الأميبي . أو أن يصير كونك الكون الأميبي .

وهاأنذا في عمق الخرافة التي خفتها تحت تهديد صوفيا بعد تسعة أعوام من التيه .

هنا حيث يفصل ظلك عن جسدك وينبت السنجك في مكانه . لم تكن هنالك حاجة للسجن فأنا بدون سجن زنزانة كريهة . كما أن قربان إله الفن يقدم إلى الحياة لا إلى الموت . ولكن ماذا سيهم ؟ فليس هنالك شيء اسمه خطة حياة في تصوراتي . ولعل هذا هو الفرق الأساسي بيني وبين الآخرين .

أنا دخلت الحياة لأبحث فيها عن الخطط . وهم يأتون إليها وجيوبهم محشوة بالخطط . وكل ما يريدونه من الحياة فرصة لتنفيذها . يبدو أن النزاهة في إمتحان مثل

هذا لا تفيد . كان عليّ أن أحتال كي أدخل إليها وجيوبي مليئة بأوراق الغش .

لقد كنت تيرمومتراً من الدخان يقيس إلى أعلى فقط . لا أكاد أجد رأسي حتى ينقلب مؤخرة بومة . ماهذا الركود المميت ؟

إنّ بحث الرجل النسر ـ الذي يحبس الفريسة بمخلب ويضرب الريح بجناح . الصلد . الذي عيناه مثبتتان على مدى الأفق ـ لم يهتد بعد إلى الخط المستقيم .

الخط الذي يمر موازياً لكل شيء يسعى لجعله يلتف حول نقاطه القديمة . إنّ ماهو عندي الآن ليس تراكم تجربة يمكن الاستفادة منه لتعديل المسار . وإنما كوم ضلال . تتباين هذه النفايات في درجة طيفها ولكنها في النهاية تلة ضلال . ولكن فالنفترض أنها تراكم حقائق عن تجربة بعينها .

ماذا سيكون إذن ؟ وأي مسؤولية ستلقى على عاتقي ؟

إنّ هذا الشيء الذي يسكنني كمهمة أصعب من مهمة ابن زياد التأريخية . فهو كان يريد أن يغزو الأندلس . التي لم يكن بإمكانها أن تتنكر في الخرط . ولم تكن لها طاقية إخفاء تواريها من أمام الفاتح طارق . لقد نجح لأن الفشل كان يرتبط بالموت لا بالحياة . ولم يضع زمنه لأن مهمته كانت تكلف بعض الأيام المريرة فحسب . ولا تستنزف العمر بأكمله .

إبن زياد كان على الخط المستقيم ولم يكن عليه أن يجده . إنّ كل تلك الفتوح التي تبجح بها التاريخ ملء صفحاته المملة . كانت دنياها تحتاج أربع عشرة ليلة فقط كي يتضح فيها القمر بأكمله . أما هذا العصر فضياءه لم يعد يأتي من حيث لا تقصد حركة الكون . وظلامه يأتي من حيث يراد تنويره . وعليك أن تسير في عتمته بين الأشياء المدببة والصلبة . وأن لا تخشى ارتطام ساقك العارية بها . إبن زياد الآن لن يزيد على كونه طباخاً بلا تميز يعد وجبة في مطبخ مكتمل التدابير .

ولمّا كانت الأندلس تنتظر إبن زياد . فقد صدق له أن المشي يحذف من الطريق ويضيف إلى الأمل . ولهذا فهم عصره أن الذي يمشي فقد بدأ وصوله فعلياً . أما في عصرنا هذا فالذي مهما اقترب لم يتخلص من بعده نهائياً .

احتمال أن هذا الحديث هذيان . ولكني لا أظنه بالجنون . عدة سنوات في هذا السجن كافية ليهذي الرجل . ولكنها لن تبلغ به ذرى الجنون الباردة .

لا زلت أذكر جامعة الخرطوم . ولكن كصوت منادي بعيد . لا تستطيع أن تميز صاحبه ولا نوع العاطفة التي يحملها . يوم بكت صوفيا في حضني تذكرت دموع صديقي عاطف وهو يتشبث بي كي لا أدع الجامعة . كان يصر على أنها كلية الهندسة المدهش الاجتماعي الذي لا يقاوم . والنعيم الذي لا بد للإنسان أن يكون أعرجاً في عقله كي يطرد نفسه منه . قلت له وأنا لا أشعر بأي شيء مما يدور حولي :

- إنني مشدود إلى ماهو أمامي من مجهول . بحبل من الغيب والحنين الرمادي .

ومنذ ذلك اليوم الذي تركت فيه الجامعة مضت الدنيا في حالها وأنا مضيت في حالي . لا تُنكر عليّ شيئاً ولا أنكر عليها شيئا . كنت كقطعة صغيرة من الحديد لا تملك إلا أن تستجيب لإغراء المغنطيس الضخم الذي يشدها ويهرب أمامها .

أسرتي نذرت المال والدموع ومن بعد أعدت حبالها كي أقيد وأعالج . أبي كل الذي يفهمه عني أنه ليس بمقدوري أن أتصالح مع مكان واحد لمدة طويلة . أما ذلك الحبل الذي يشدني نحو المجهول الذي يمتد لي منه فلم يكن يره .

وأنا كنت كمتزلج انزلق من قمة جبل جليدي شديد الانحدار . فليس في مقدوره أن يفعل شيئاً . وكل ما عليه هو أن يحفظ توازنه فوق الزحافتين ويملأ داخله بصيحات الحماس حتى تطفر خارجه كي لا يسمع صوت خوفه .

هيا هيا .. والزحافتان يزيد جنونهما وهما تبصقان الثلج في وجه المدى . كنت أريد أن أسقط بهذا السفر الذي أعنيه في السفر الذي يعني نفسه في . الزحافتان يزيد جنونهما والمتزلج يطمئن نفسه قائلاً : (لا بد أن يحفك الموت لتعرف أنك حي) .

أنت تقول للمجهول أيها الكلب سأتقدم ولن أهابك . ويتظاهر هو بأن عضته ستكون من الخلف . فيصبح المجهول الذي أمامك فخا والذي وراءك قناصاً .

لقد وقفت طويلاً أمام ذلك القرص الورقي الذي يحمل جميع الألوان . وحين يدار ذلك القرص بسرعة حول محوره تتلاشى ألوانه جميعها في الأبيض . قلت لنفسي لا بد لي من حركة ما ترسو بي على طبيعة واحدة . وكلما اخترعت حركة ما أكتشف أنني لست قرص الورق . لم أستطع أن أخدع طبائع آدميتي كما خدع نيوتن طبائع الأشياء . لم أجد ذلك الأبيض الذي أرسو عليه . فعقدت العزم على العدو والتحرك من الآن وبلا تردد . فربما أجد تلك الحالة التي أخدع بها طبيعتي .

عاطف قال لي من أجل إقناعي بعدم السفر :

- لن تهرب بك ساقاك بعيداً عن عقلك مهما ركضت .

- أنا لا أهرب . كل ما في الأمر أن العقل ملقى في الخلاء . فلابد أنه سيعوي ويلحق بالذئاب .

قال لي راجياً :

- إذن أجري قدر رجليك .

- بل سأجري قدر ما أحلم بالوصول إليه .

كان يتملكه إحساس أنه يرثيني حينما قال لي :

- ستنفق ليستقبلك قبر عادي . سيبلغه حتى الذين لا يعرفون المشي .

لم أكن أدري ساعتها كيف ينفق الرجل وسط المدنية . ولكنني رجحت حدوث ذلك إذا توسط الرجل المدنية وهو يحمل ضياع الصحراء في كيانه . على كل أجبته :

- الذي لا يرغب في الجري وحده من سينفق . والقبور العادية للذين يركضون قدر أرجلهم . أما الذين لا يعرفون المشي فهم أصلا يشغلون قبرا .

- مهما عدوت فستصير موطء حذاء .

- حينها سألتهم القبر وموته .

- إنه الجحيم يا رجل .

- الجحيم حيث تنتظر .

تركته وهو يحاول أن يخترع طريقة يقفل بها فمه . وتوجهت تلقاء بورتسودان بعد أن فشلت في الحصول على تأشيرة إلى أي واحدة من دول أوربا . وصلت مدينة الصدأ والرطوبة منهكا ومستنفداً . ولكنني أصررت على أن أقضي بعض الوقت بجوار البحر .

في الطريق إلى الساحل صادفتني فتاة بجاوية تركب حمارا . وبينما هي تسير بمحاذاتي أبصر الحمار الذي تركبه أنثاه . فأخذ ينهق بتشهي وعنفوان . ثم أعقب ذلك بإطلاق جشاءه التحتاني كأفظع ما يكون . واندفنت ملامح الفتاة في وحل بركة من الخجل والوجوم . ما أقوى حقيقية هذا المشهد !! الحمار يخلص في رغبته لدرجة تعتصر عواطفه حتى تصبح ريحا تخرج من الدبر . والفتاة شعورها يعمل لدرجة أن يحيلها الحرج من الآخر إلى تمثال . زلزلتني صيحة من الداخل ... إنها الحقيقة ، .. رباه لن أترك الحياة

إن لم تنبعث مني بهذا الوضوح والصدق والسطوة .

جلست قريبا من ذلك البحر الذي تعلقت في سمائه غمائم باهتة . قلت في نفسي : (هذا البحر يرقد على أنفاس أن أمشي . سأمشي ، سأجتازه . هذا البحر الوقح لن يكون مقبرة توقي للعبور . وهذه الغمائم البالية لن تحجب عني ما أحلم به من فضاء . لن أقبل أن أرى حدود دنيتي . سيعجزك أيها البحر أن تغلقني . إن لي إرادة تتفجر من الأعماق كالتي جعلتك تتشق في هذا المكان بالذات .

إنني يا بحر أو أياً كنت ، أدير نفسي من الشاطئ الآخر . نعم أنت تراني على شاطئك هذا . ولكنه انعكاس لي أنا الذي أقف على شاطئك الآخر . إنه رجل يعتقد بعظمة أنحائه البعيدة . فلا بد أن يكون انعكاسه مهولا . يسد ما بين شاطئين يرقدان على جنبتي بحر عظيم مثلك . يمكنك أن تغلق الأرض كي لا تهرب من دارة الأرض . أما الإنسان فحكمته تختلف .

إنني رجل تحول إلى طاقة من جنس الروح ليقطعه بأسرع ما يكون . فهو هاهنا فاني لا محالة وعليه أن يجتاز عدمه) .

غفوت على ذلك الشاطئ رأسا برأس مع البحر . وجنبا بجنب مع الصدف وقحف الملح وفضلات الأعماق والطحالب .

استيقظت وأنا معافى من كل ما يربطني بهذه الأرض . إذ أنني أتخلص من الحب والحنين أو أي عاطفة أخرى تربطني بالعالم . كما أتخلص من التعب والإعياء . بضع ساعات من النوم وينتهي الأمر . كل شيء وكل أحد في هذا الوجود يمكن تكفينه بهدوء والترحم عليه . ولن يرفع رأسه بعدها أبدا . بضع ساعات من نوم الرجل الأميبي تفني في الدم غيرته على الماضي . لا عجب ، فالعواطف عنده ضرب من وهن الإنسان .

لقد ضخمني ذلك التحدي للبحر في أعماقي . فهي تبدأ هكذا بشعور أنك شيء . إلى أن يصيبك جنون أنك كل شيء . لا بحر ولا نار ولا تخوم ميتا فيزيقية تسد الطريق أمام ما تنويه . ما يحيرني أنني لا أجد في نفسي الأسئلة الميتا فيزيقية بقدر ما أجد سؤال الحياة . ورجال الكهنوت هؤلاء الذين يذكرونهم . لا أدري مهمتهم ولو على وجه التقريب . فأنا لست مؤمنا بالميتا فيزيقية لأنني لم أنتبه . ولست ملحدا بها لأنني لا أدري كيف أخلق لي موقفا ثابتا تجاه قضية معينة .

على كل فقد مكثت في بورتسودان أرقب البواخر والسفن وأفهم حركتها . حتى وجدت الفرصة لأتسلل إلى إحدى البواخر المتجهة إلى بلاد الأبيض المتوسط الأوربية . عندما اكتشفوا أمري لم يكن هنالك سبيل للتخلص مني إلا بإلقائي في البحر ولم يفعلوا . فتشوا أشيائي فعثروا على أوراقي الثبوتية . حينها صفق القبطان وقهقه بانتصار كأنه حل لغز برمودا . مسح على ذقنه الخشنة بمكر وسخر مني قائلا :

- إذن فأنت لك تفسير . ولست الإنسان اللغز كما توهمنا ؟

- أتعني أن هذه الأوراق تفسرني ؟

- على الأقل تجعلني أصدق أشياء عنك .

- هكذا إذن ؟

- بالنسبة لي هي مسألة أن أكذبك أو أصدقك لا غير . أما شرطة الموانى فلن يشهد لك عندها الثالوث نفسه بدون أوراق .

استغليت انتشاءه بذلك الانتصار واختطفت الأوراق من يديه وقذفت بها في البحر . ثم قلت له وأنفاسي حامية ولها دخان كمراكب ابن زياد ساعة حرقها :

- لست بضاعة لأحمل هذا المنفستو .

فصاح الرجل بتوتر محموم :

- أيها الأحمق . لم فعلت ذلك ؟

- هكذا ، .. ليس لأي دعوى أو سبب .

يبدو أن ريبته تجاوزت إجابتي وأخذت تتشكك في الحياة نفسها التي تمنح فرصة عيش لأمثالي .

أضفت قائلا :

- حدوث الفعل في حد ذاته مبرر لحدوثه .

- وماذا ستفعل مع شرطة الموانى أيها المخبول ؟ إنها لن تعشيك سمكا على هذه البطولة .

أجبته بلكنة بحارة متحدية ولا يعنيها وعيد العاصفة :

- سور المزرعة الذي تتسحب من تحته الذئاب لعلوّه ، تقفزه حينما تطاردها الكلاب .

الغريب في الأمر أنه ضحك بعمق وأمرني أن أتبعه إلى صالة على قمة الباخرة . يبدو

أنه استلطفني أو استغربني . أو ربما قرر أن يجعلني موضوع تسليته لتلك الليلة . فقد دعاني للعشاء والشراب معه . وفي وسط صفاء الخمر سألني بمودة :

- ما الذي تريده ؟

- أريد أن أفهم .

أجابني بثقة عابثة :

- تزوج حينها ستفهم كل شيء .

ضحكت أنا بطريقة فيها نكهة مسرات قديمة . ولكن لا يبدو أن ضحكة القبطان كانت تستنزف مخزون ذكرياته المرحة . فقد أضاف بكل جدية بعد أن مسح قطرات الخمر من فوق شاربه الكث . ثم تأمل حركة الموج التي تضرب هنا وهناك بعشوائية مرحة وبلا انتظار :

- صديقي القبطان دانفودي من ساحل العاج . كانت تؤرقه مسألة فهم الحياة هذه . ولكنه تحرك في الوقت المناسب وتزوج . فبدت له الحياة مفهومة تماما . لا مبالاة من قبل الزوجة وتهرب من جانبه هو . وهكذا .. شتيمة منها وسوء أدب منه . بصقة من هذا وركلة من ذاك . ثم تمضي الأمور .

سألته وأنا يرجني الضحك :

- ولكن تمضي إلى أين ؟

- لا يهم فقبل أن يتزوج كانت ستمضي إلى أين ؟

تعالت قهقهاتنا وسط البحر ولفنا ضباب الملح . بدا لي أن ذلك القبطان طريف وأكثر في الشراب . ولكن من يدري فربما هذا كل ما تحتاجه الحياة . لقد فهمت من حديثه أن صديقه بلغ بالسخف آخره . وربما قصد القبطان أن صديقه أسلم أمره لذلك الصاري وبات ينتظر . ولكن تلك قلوب القباطنة التي ترقب صاريا خارجها ، ويصيبها بالصمم أضعف زعيق للريح . أما قلبي أنا ففيه الصاري وعبث الريح . والبحر إن لم يجلس أمامي لجلست أنا أمامه . لا لشيء ، إلا لأنني أريد أن أتفحص الأشياء من ناحية وجهها المخفي .

لقد ادعى ذلك القبطان أمام شرطة الموانى بأنني من الشغيلة الصغار على ظهر الباخرة . سببت له الكثير من المتاعب ولكنه ألقى بي مع تجارته في أوربا . فهبطت أرض

أوربا بنظرية أننا كلنا قطر واحد في دائرة واحدة . حركت بسرعة حول محورها . مما يجعل القطر يشغل فراغ الدائرة كله . فالحركة وحدها التي تجعل لنا ظلالاً كثيرة في ذلك الفراغ . ونحن لا نمتاز بالكثرة والتنوع كما نظن .

قلت متآمرا على نفسي : (ستكفر بك إما لأنك منزعج غاية الانزعاج . أو لأنك لا تعرف الانزعاج مطلقا . إنها أوربا والطُعم قد أصبح على رأس السنارة . لقد أصبح الصيد حتمي الآن . والذي يقتحم شروره سيكون في وضع أفضل للقتال من الذي تفاجئه شروره) .

تعلمت كل ما يجب أن يتعلمه الباحث عن الحياة في جثثها . فهمت أن السرقة ليست مدرسة كما يتوهم سانتينو . بل طور نندهش به كطور البلوغ تماما . تشردت في أوربا حتى لم أجد مكانا أضع فيه قدمي لأول مرة . عايشت أوربا وهي تقول : (التآكل استعادة بناء الخام . والتفتت تجميع بشكل آخر) . في ذات العصر الذي كنا نفتي فيه بأن تلك حذلقة علماء ستفضي بنا إلى أن نبول على كل شيء . يا لغبائي في تلك الأيام . لقد بصقت على وجه أحد العجائز لأنه قال لي : (العلم لا يشرح لنا سوى اللحظات القليلة التي نتخلص فيها من غبائنا الذي حالا ما يعود . فلسنا أذكياء على كل حال) .

ولكنني أفدت أن الإنسان لعبة أكبر منه . فاذا حاول أن يكون بحجمها يكتشف أنه تراكم أوهام كثيرة فخخت لتصيد أوهاما أكبر منها .

لقد أعجبني ذلك العجوز الايطالي الذي صادفني أمام كنيسة داكنة البنيان . وأجراسها تدوي وتضج كالقطارات ببطن ريف قاحل . أظنه قد لمح زيغ التشرد في عيوني . فقد استدرجني إلى حوار طويل قربنا من بعض . سألني أثناءه :

- ما هي غايتك ؟

- غايتي !؟

حككت جلدي قليلا ثم أكملت قائلا :

- أن أضع فمي على ينابيع الحياة مباشرة . لا أظن أنه يمكن نعتي بالطمع إن رفضت الحلمات المقترة لمص الحياة .

ضحك العجوز بخبث وقور ثم أجابني :

- الشيطان يا ولدي لا يعرض على الإنسان الطمع . بل المشاريع فقط . لأنه يعلم جيدا

أن الإنسان أطمع منه .

- أنا لم أخرج من داري كي أساوم .

- وماذا عن الثالوث ؟

- ولو أنني قادم من أصقاع موحدين . ولكن ثالوثكم هذا فاشل وكفر منكم لا أكثر . لأن التشاركية لخلق مطلق تلغي فكرة الإطلاق نفسها .

- وجودي ؟

- لا أبدا . لست وجوديا ولا بوهيميا كما تظن . أنا فقط شخص فاشل في كل شيء .

- اسمع يا ولدي كل شيء يؤكد معناه في الحياة لينفيه بصورة أعمق . الذي يحفر دون توقف ليميز مكان حفره عن باقي الأرض يلغي مجهوده بجعل الأرض كلها حفرة . الغناء يبدأ مشبعا بالطرب فيخفت ويخفت حتى يصير حنينا ثم حزينا وينتهي بالدموع . إن الحياة كلها تنبني على مسيرة بين طرفين في كل شيء . حينما تنفصل تماما عن أحد الأطراف تتصل به كأمتن ما يكون . فتعال إليّ يا ولدي .

سألته دون أن يكون لي طمع في إجابة :

- لماذا ؟

- لأعمّدك . فإن طريقك معنا .

- لقد عمّدني الزمن له .

- إن كنت تفهم خطيئتك فحسبك هذا من أنك قديس عظيم .

- لا أشعر بأن هنالك من يخنقني بقدر ما أخنق أنا نفسي .

لقد أجابني العجوز على عبارتي هذه بإجابة لن تفارق ذاكرتي أبد الدهر . فقد قال لي بصورة حانية ومتوعدة :

- جهنم ليست حل الله الوحيد .

لاك دماغي هذه العبارة طويلا قبل أن أجيبه :

- هنالك خدر ما لا أعرفه . أصاب منطقة مني فعزلها بالكامل . أريد حقيقتي بأي ثمن .

- الأديان يا ولدي تهدف لما هو فوق الحقيقة . إنها تريد مشيئة الحقيقة . أي التحكم فيها . فالحقيقة بدون مشيئتها لا تجعل منا حقين .

تأملت وجهه بفتور كان يعينني عليه تهور الصبا . ثم قلت له :

- الكل يخفي البارود تحت قبعته ويميلها ناحية جبهة الصلاة .

تسكعت في أوربا حتى شعرت وكأنني قائد دكته معركة فاصلة . وانهزم من حوله جنوده كلهم . ولما أخذ يصيح ليشيع فيهم روح الحماسة لم يجد إلا حصانه من تحته . فبلغت أمريكا وهي حانة أقاموها على ذيل مذنب يشق أبراج السماء . كنت أتساءل : ما الذي ليس بوسعك أن تفعله هنا ؟

إنهم يفعلون أي شيء يريدونه وبكل برود جرئ . ويقولون كل ما يودون قوله بكل عفوية فجة . لقد أدهشني صدقهم . كنت أستمع إلى محطة إذاعية تجري حوارا مع روائي من أمريكا الأخرى ، اللاتينية . سألوه :

- كيف صنعت عبقريتك ؟

أجاب ببساطة تعبر عن الصدق مباشرة :

- عبقريتي !؟ أوه ، كان لا بد أن أكون عبقريا . وما العبقرية سوى أنها واجب ؟ لقد ولدت في طبقة يفقرها الرب ويتعنصر ضدها البشر . وطني يقص لي الأقاصيص ريثما أموت . وقبحي الشخصي على استعداد لأن يربك عدة أشخاص .

ربما شدني حديث هذا اللاتيني لأنه صلة الرحم بين أمريكا اللاتينية وإفريقيا المتوحشة . وكلمتا اللاتينية والمتوحشة في هذا التناظر كلتاهما تعني الوصول إلى مرحلة لبس السراويل من تطور الإنسان .

وأيضا سحرني بحثهم عن العمق . فقد تناولت أحد كتب الفيزياء النظرية فوجدت أن صاحبه كتب عليه تأليف .... وأعقب ذلك بنقاط وليس باسمه . ووضع أسفل تلك النقاط بصمته وعلق موضحا :

« إنها الشيء الوحيد الذي يعبر عن الذات موضوعيا »

وأيضا أدرت مفتاح التلفاز في أحد الأندية ذات مرة . فوجدت إحدى وكالاتهم التلفزيونية تستضيف شاعرا هي أكثر من بادله العداوة في العالم . فقط لأنه قذر الهيئة والإسلوب ولايهتم بمظهره كما تدعي الوكالة . وجهوا إليه الكثير من الأسئلة السمجة التي تتعقب الإنسان حتى ملابسه الداخلية . فقال لهم محتجا :

- إن كل ما آسف عليه أنني لم أحضر معي منشفتي وحوض الغسيل الخاص بي . كي

أستحم في أستوديهاتكم النظيفة هذه . فإنها لن تخدم الإنسان بأكثر من ذلك . كما أنني سأكون قد حققت رغبتكم التاريخية في أن أكون نظيفا .

لم أكن أتخيل أنه سيكمل حديثه . بل توقعت أن يوقفوا البث فورا . ولكن لا شيء من ذلك حدث في ذلك العالم الحر . فالمذيعة لا زالت تلاحقه بالصابون وهو يؤكد على أنها ليست أنظف من جدودها فلا يبدو مهما أن تعاصر تطور صناعة الصابون .

قلت لنفسي : (إنها الوقاحة التي تفرض الخصوصية ومن ثم الابتكار) .

إنها بلاد الرجل الذي لا يحيا بين الآن والتالي . وإنما بين التالي والتالي . ونحن لا نزال نعتقد بأن الحلم قرارة النوم . والصحيح أن العين لا تنام إلا إذا خلت من الحلم . يكفينا في هذه الحياة أن نستيقظ لنشرب الشاي . ثم ننهض من على الأرض وننفض ثيابنا . فلن تسقط الجاذبية الأرضية من طياتها . هذه الجاذبية الضد التحليق . لا بد أنهم سيخضعونها ذات يوم ويجعلونها وقودا للتحليق .

وليكتفي عباقرتنا بابتكار مقولة أن التخلف لا يسقط المدنية لأنه مرحلة ما قبل المدنية . وأنت لن تتعثر إلا فيما هو أمامك . ومدنية الغرب سيهلكها كبرياؤها الذي هو أمامها . ربما هذا صحيح . ولكن الرجل الأميبي والكون الأميبي احتفلا ببعضهما . تضاد الكيان الواحد ، وسواحل تتسكع في منتصف البحر . والارادة كما تشتهي نفسها . لا كما تشتهيها الكتب السماوية والمحاذير .

الجنون هنا يتقافز في الهواء كما تتقافز اللعب النارية . الناس يصدمون بسياراتهم الجسور . ويلقون بعود الثقاب في مخزن الغلة الذي يملكونه . ويتناسون إغلاق أنبوبة الغاز في المطبخ كي تحرق المنزل . كل ذلك يتم عن عمد والذي فوقه أنهم يكسبون .

فكسب المال أصبح ليس بالعمل ، ليس بالبناء . وإنما بإحلال اللعنة . لا تعجب . فالسبب هو شركات التأمين . حتى الموت أصبح لعبة برجوازية . فأمكنهم أن يدخلوا عليها شيطان الربح . بعد أن عنى الموت لزمن طويل إحتمال خسارة فقط . هاهو بلا مقاومة يقبل احتمال الربح . وربما يمضي الزمن ليجعله يقبل إحتمالات أكثر من ذلك . إنها سياسات البرجوازيين التي إن حكمت عليك بالإعدام فلن تسل روحك إلا بدولار . فلا عجب أن يمر أحد بائعي إستمارات التأمين بفلاحة اختلطت بمعولها منذ أمد بعيد فلا تعرف أيهما يصفع الأرض . ليسخر من تلك الفلاحة . أو في الحقيقة ليكون عملياً حينما

يقول لها :

- أليس زوجك يملك ورقة مثل هذه ؟

- بلى نملك واحدة .

- إذن لماذا الشقاء ؟ ألا ترين أن رقعة الأرض أوسع من سنة فأسك بكثير ؟ أوه ! لدرجة أنها لا تساوي شيئاً إذا قورنت بها .

- هذا صحيح .

- إذن لماذا لا تربحي قوتك هذا العام بضربة فأس واحدة .

لم تتعجب المرأة البسيطة لظنها أن المتعلمين يملكون طرقاً سحرية لحل مشاكلهم . بل سألته ببراءة :

- كيف ذلك ؟

- ليس صعباً يا عزيزتي . فقط اهوي بهذه الفأس على رأس زوجك .

وقد قصد ذلك الرجل بالفعل أن يعوضها تعويضاً ضخماً كي يخلق دعاية أضخم لشركته وسحره عند أولئك البسطاء . فالعصر عصر لا تستسلم . فلن تعد لك الأرض كفناً من الرضا . ولن تسبحك العزلة بالسكون المبثوث .

قاوم ، واحرق ، ووزع معاناتك الشخصية على الآخرين بقدر ما تستطيع . وانبت كشجر للرماد في ذات الصخر الذي تهشمت عليه . إنها حرب الشيطان فيها مع الجميع والله فيها ضد الجميع .

اجتهدت لأقول : إن الإنسان لا يمثل في الواقع ولكن عيشه المفروض عليه هو الذي يتم كدور في مسرحية .

لقد توثقت من أن الإنسان يعيش في سلام حينما يكون عمقه إنعكاسا لسطحه . أما إن كان سطحه إنعكاسا لعمقه فذلك يعني أنه فتح نفسه محلاً حربياً في شارع للمعارك . وعليه أن يتقن حفر الخنادق وإلقاء قنابل اليد . فليس ثمة رسائل معجبين من قبل الآخرين . وليس إلا الأسئلة التي تلقي بنفسها كهاوية ذرية تنحدر حتى الانفجار من قبل الذات .

كل ذلك والرجل الأميبي يخون حتى معناه . ويستهتر حتى بالموت حين يرسل إلى القبر بدل نعشه صندوقاً حزم فيه ضحكة ممتلئة البطن ولها دبر خنزير . ولا تزال الريح تعدو

خلفه كرغبة أنثى نزقة . عيناها تشدان كذراعي بحار . تمسكان بحبل الصاري جيداً حين ترتمي عتمة الريح وصبيب الموج في صدره . وليس أمامه سوى موت الخوف والبرد .

لقد فقدت دفئاً حقيقياً . من نوع الدفء الذي ينبعث والوعاء لا يزال على علاقة بمصدر التدفئة . لا يشبه على الاطلاق دفء ما وضعناه في حافظة . فأنت قطعاً إذا شربته ستميز طعم التصبير الذي ألمّ به . آه .. أو طعم الدفء المفتعل والمطبوخ . لذلك ارتميت إلى داخلي كي أناقشني بمنطق إلهام روحي رياضي متعمق . أفتاني بأن التفكير المجرد بلادة التفكير الخلاق . وأن الجنون برود العقل لا التهابه . وأن الحضارات تكمل بعضها البعض من أجل معناها . وتهدم بعضها البعض من أجل قيمتها . وأن كل شيء يتضح ليكون أكثر إبهاماً . وأن لا شيء ولا أحد له رأي أو حالة واحدة . وأنا شخصياً لست متحققاً إن كنت من ذوات النفس الواحدة أم لا .

لقد صرت مستوطنة لحالة غريبة من الشك . فلا شيء يبقى عندي ليوم واحد كموضوعة إيمان مقبولة أبدا . كتبت :

هنا وحدك ... في بحر العزلة
تخوضان بلا تأنيب ، أنت والتيار
وتتعثران على الموج ، أنت والريح
الشك قرحة دماغك المريض
ولا حانة تبلغك آخر الليل
بلا وهم
هنا في قلبك الشك
جشاء النار
ليت لك بصيرة من حتم
غاية ما هو شوفك الشكوك
تجد نفسك دلواً فارغاً
كالذين انتشلوا أنفسهم من المرايا
فالتطابق كان ... خارج أوجه الشبه
وداخل كل ما هو محدود

إن بطن الأرض لا تضجر منا

غداً يحتفل شكنا والدود

فليس لنا مهمة

أكثر من ثلاجة للشكوك

تفلسفت كثيراً لصوفيا قبل أن أقرأ عليها قصتي التي قمت فيها بصياغة قصة القاطرة . حكيت لها أن الفيلسوف يمشي مزدحماً بكيان المدينة الفاضلة . أما الشاعر فتلوح المدينة الفاضلة مزدحمة به . أفتيتها بأن الشعر في المسرح والرواية تهيوء له فقط .

وأن الرواية منطقها الوحيد أنها رواية . ويجب أن نخرج بها من لونية الروايات التي تحدثنا عن آل فلان وبني علان . فالشخص قد أصبح بمفرده آل . كما أن سينما المؤلف همها خلق دنيا كل إنسان فيها عاصمة لبلاد الإنسان .

والمسرح ليس بوفيه ليستوجب علينا أن نخلق له الزبائن . والممثل ليس طبنجة لتفريغ النص في رأس الجماهير . بل هو خلوة شخصية الدور لحظة سرها . والمطلوب منه القبض على ضلالات الشخوص كما تقبض الشخوص على ضلالاتها حينما تختلي بنفسها . فلا بد له من التنقيب في أرضية النص والتنجيم في سمائه . ليكتشف مع الجماهير وينسحر معها.

طمعت في أن أقول الكثير من نوع هذه المقولات التي تملأني بحيوية العجائز . وتمنحني إيماناً كالنزوة . ليس مرهوناً بشيء محدد أؤمن به . ولكن صوفيا تضجرت . فقد كانت ترغب في معرفة ما فعلته بالقصة . تناولت أوراق القصة الممزقة بعد أن طلبت مني صوفيا ذلك . ليس شفاهة . ولكن بكثرة تململها وفشلها في العثور على مكان تجلس فيه على كرسيها . تأملت بعض الوجوه الفخمة للجالسين في النادي الليلي ثم قرأت :

تجمهر أهالي بلدة كمون ذات صباح حول ملصق على آلة عجيبة . اخترعها رجل مهووس واختفى بدون مبررات . الناس يتصايحون ويلقون الأسئلة على بعضهم عن كيفية عمل الآلة وعن التوقعات المحتملة في حالة امتطائها . كان الكل يمتلك كراسة من الأسئلة وليس ثمة إجابة واحدة بحوزة أحد .

المفتش تربع على مكتبه يلقي أسئلته على الفورمان الذي كان يقف أمام مكتب المفتش حانياً رأسه في إطراقة غليظة ومستنداً بساعديه على طاولة المكتب . وقد انتقل توتره إلى

ركبتيه فثناهما باتجاه المكتب لتستندا عليه أيضاً . لم يكن يبدو عليه أنه يمتلك إجابة . مما شجع جاكوب الساخر لينادي في رفاقه قائلاً :

- المفتش ينتظر إجابة من الفورمان يا للأبله . انظروا إلى الفورمان الذي عليه أن يجيب . إن وقفته بتلك الانحناءة من أعلى والانثناءة عند المنتصف طبق شكل علامة السؤال . لقد صاغه لغز هذه القاطرة سؤالاً من ابن آدم .

امتطى الضحك أفواه الجميع . فقد كان جاكوب من النوع الذي إذا لقيه أحد الناس من أمثال غاليلو وذكر له بأن الأرض بيضاوية الشكل . فسيرد عليه جاكوب بأنه لا بد نظر بالتلسكوب أسفل دجاجته . لم يتوقفوا عن الضحك إلا عندما بدأ الفورمان يتمتم قائلاً :

- إنه الرجل المخترع الذي يدعونه ... آه ماذا ؟ لا أتذكر . الرجل الذي يتعاون مع المصلحة في تحديث القاطرات . هو الذي أتى بهذه البهيمة وذكر بأنه سيأتي لتجربتها بنفسه .

صمت الفورمان قليلاً ليهرش رأسه ثم أضاف :

- أوه ، هو الذي ثبت عليها ذلك الملصق يا سيدي .

احتاج المفتش لأن يثبت نظارته كي يقرأ الملصق من مكانه . والذي كان مكتوباً عليه : انتبه ! فإن سرعة هذه القاطرة فلكية وليس لها كابح .

همهم المفتش كأنه فهم كل شيء من ذلك الكلام المفكك . وقال وهو يدفع بطنه المقوسة أمامه كأنه يزيح بها حشرية الناس عن طريقه :

- لا بأس طالما أنها أحد ابتكارات عالمنا الجليل . فلينصرف الناس بحقيقة أن العالم رجل مجتهد ومثابر . كما أنه لا يمانع في المبالغات والادعاءات الغامضة . وسواء أتى بهذه البدعة أم لم يأت فقد كنا ننوي تكريمه .

انصرف الناس وهم يروون آلاف القصص عن معجزات ذلك العالم العبقري . والذي هم في الحقيقة لم يسمعوا اسمه حتى في هذا اليوم . لقد كان نهراً جدد حياة أهل كمون وكل اغتسل على طريقته .

أحد الشبان كان قد وصل لتوه يحمل جراب آلة موسيقية في يده . إنه سيلفستر الشاعر والمغني المغمور تحت درجة الصفر . وإنها نفس مشيته التي تحلم بأن تسبح في أضواء كاميرات التصوير وأن تتعثر في تصفيق الجمهور . صاح في ريتا المغنية المشهورة مثله :

- إن أهل كمون يتطلعون خارج محفظات نقودهم ، ماذا يجري ؟

تبادله ريتا السؤال :

- أين كنت أيها الكائن العقيم ؟ هلم سأحكي لك في المنزل .

أينعت الحكاية في سيلفستر بمغامرة فاكهة ما . فانسجمت تلك النظرة التي غطت عينيه مع غرفته التي هي أشبه بالاستديو . أخرج جيتاره بزهو أربك أنامله وتحدث إليه بهمس يرجى منه نقل الانفعال قبل الكلام . قال لجيتاره :

- منذ أمد بعيد يا جيتاري وأنت تعاني من لوثة أن لا تكتشف ما هو أمامك من بصيرة الغناء . دعه إذن واكتشف ما أمام ذلك الوحش الآلي فالرجل هنا امتداد لموتور سيارته .

لحقت به ريتا وشهدت تلك المغازلة للجيتار . ثم سهر شبحاهما في تلك الغرفة مخنوقة الاضاءة حتى الصباح . ليعدا معجزة تستفز كمون العاطلة عن إدراك الرحيل الذي يحفها . في الصباح التالي كان سيلفستر ومعه ريتا يغنيان هذا المقطع بقرب الآلة العجيبة :

المحطات عكازة أعمى

ولن تفيد إلا المشي الضرير

فلنمت إلى الأمام إذن

فلنسير

فلا شيء يعني ذاته

دون أن يكون

تجمهرت كل المدينة بقرب الآلة كي تستمع ولم تفلح محاولات الفورمان والمفتش وحتى الشرطة في تفريق الجموع . فقد استسلموا أو رحلوا في ترديد ذلك المقطع الذي كان يؤديه الثنائي الشهير منذ تلك الحادثة .

أحد الحضور وصف ذلك الغناء بأنه يشبه أعراض الحمل عند البقر وأضاف :

- لكنه مدهش للغاية .

أمّن من كان بقربه على تعليق الرجل . فقد أدى سيلفستر وريتا جعاراً مدهشاً بكل ما فيه من تمرغ وحنين وانجذاب . كف الثنائي عن الغناء واتجها ناحية الآلة الشيطانية وبكل يسر قفزا إلى داخلها .

أخذ الناس يتدافعون من خلفهم وكل يحاول أن يخفي أنفه من رائحة الآخر حتى يجد له مقعداً داخل الآلة ذات الرائحة العطرة والحالمة . أحدهم همهم مخاطباً رفيقه :

- ماذا أيها الرجل البارد ؟

فأجابه :

- أشعر بأنه يعضني كلب .

فردّ عليه :

- إني لأرثى لذلك الكلب الذي سيسعر .

تضجر أحد المتزاحمين من سلوك متزاحم آخر قائلاً :

- إنك تركلني على قفاي يا هذا !

فأجابه ذلك المتزاحم بتعجب وامتنان :

- بل قل إني أساعدك في المضي إلى الأمام . إنها خدمة يا رجل ويجب أن تشكرني عليها .

حينما امتلأت الآلة أغلقت أبوابها بنفسها وتحركت ببطء لتقف عند مفترق الخط الحديدي القديم والخط المرسوم للآلات الحديثة . ثم أضاءت إشارة بيان صغيرة وحمراء في شكل أسهم الاتجاه . كأنها تخيرهم . وكان بعضهم قد تذمر وبدأ يحتج على بطئها ويرمي العالم بالدجل . ولكنهم بعد وقوفها صمتوا إذ فهموا أنها تريد أن تحدد وجهتها فحسب .

صاح الجميع : القديم .. القديم .

وأضاف بعضهم أن خط القاطرات الحديثة مكتظ بالقاطرات والناقلات المخيفة ويمر عبر أنفاق ومطبات ويقفز فوق أودية . فلا بد أنه خطر . وبعد أن أكملوا تمنياتهم بالسلامة انطلقت تلك البهيمة كما أسماها الفورمان كشهاب من نار السماء في خط الناقلات الحديثة . وغرقوا هم في نشوى الرحيل يرددون المقطع خلف سيلفستر وريتا بصوت ملتهب ومصادم .

في تلك اللحظة استطاع الفورمان والمفتش أن ينسلا من تحت أقدام الناس الذين كانوا قبل انطلاق الآلة يحاولون اقتحامها للمشاركة في سطوة ذلك الصباح ولكنهم فشلوا .

علق الفورمان قائلاً :

- أين القاطرة ؟ يا إلهي لقد اختفت حتى قبل أن تنطلق . يا للمقطع الملعون . إنه يرحل بنصف المدينة . لا بد أنه كان سيرحل بالعالم كله لو أنهما أكملا الأغنية .

أجابه المفتش وهو يحاول أن يضع البوريه على رأسه :

- وما أدراك أيها الأبله بأن مقطع الشيطان ذلك لا ينمو ؟

لم تظهر تلك الآلة العجيبة في الوجود مرة أخرى . ولم يعد أية أحد ممن انحشروا بداخلها . ولكن بعض سكان الريف المتاخمين للخط الحديدي في أنحاء كثيرة ومتفرقة يربطها ذلك الخط . ذكروا بأنهم أحياناً يسمعون كلمة أو كلمتين على الأكثر من ذلك المقطع يؤديها نفر كثيرون بصوت ملتهب . ثم تختفي تلك الهمهمة الجبارة في البعيد . آخر الأخبار تؤكد أن رجلا أقسم على أنه سمع جملة تامة تقول :

داخلك نهبٌ لهذا الحنين

فانهض أمام القافلة

والفظ ظل جسدك كمد بحر

سمعها تأتي من إتجاه الخط الحديدي وبصوت سيلفستر وريتا . وقد كذبه الناس لأنها لم تكن في المقطع .

عندما فرغت من قراءة القصة وقفت لبرهة أتأمل أبعاد قصتي في أبعاد صوفيا . لاحت لي نقطة في مدى عينيها ذات مفترق الخط الحديدي . وما خلف اللون الذهبي في شعرها ترامى وترامى كذاك الريف الذي تاخم الهمهمة جبارة المجهول . عندما جذبت صوفيا أنفاسها قبل أن تطلقها مرة أخرى مع تنهيدة حارة ومتعاطفة انهد فيها تماسك أنها ليست مغزوة بهلوسة حنين ما . سألتها بما تبقى في صوتي من الانفعال الشعري الذي ألقيت به المقطع :

- ما رأيك يا صوفيا ؟

- هذا جنون رائع .

- بل جنون انكشفت به أهم مواطن الروعة . كالمواطن التي تتكشف من امرأة فاتنة أثناء ركضها تحت المطر .

سكت لفترة يسيرة ثم أضفت :

- والذي فوق ذلك يظل الجنون ليس حقيقة ذات ثوابت بل مكيالا بشريا يمتلكه الجميع . مما يخولهم جميعاً حق أن يكيلوا به . والأمور تمضي على هذا النحو حتى تتعثر بالقيامة .

- ذلك أفضل من لو أنها تعثرت في العصر الحجري .

- هاه ، لقد أعربوا التاريخ كجملة غير مفيدة . لكم وددت أن أعيد كتابة التاريخ لأقول : (إن التاريخ ليس نافذة تطل على أصقاع الماضي بل مخاوف تدفع بنا إلى الأمام). كنت سأحذف منه كل القصص . وأثبت ما بلغني منه بدراسة لغتي وشخصيتي .

- ليصبح التاريخ ماذا ؟

- ليصبح باختصار أنا .

إن الدنيا تعيشنا ولا نعيشها .أناس كثيرون يمرون من هناك ومن هنا بظلالهم فقط . فالناس في هذه الدنيا لم يعبروا بذواتهم قط . الأشباح الآدمية تمضي يومياً وفي جلبة لأكل الموت ، لبصق الموت ولبول الموت . وأنا لا أزال عند ملامحي كأي رجل مجهول . يركز في مشيته ويسبق خطواته كثيراً . نادراً ما أخرج من معطف ذاتي . فرداءة الطقس الإنساني المستحكمة ما كانت لتعجبني .

هل صحيح يا ترى الذي تدعيه صوفيا من أنه بإمكاني أن أغدو خلاقاً لا بأس به بدل ذلك المتحرر المخادع . إن اعتمدت على موهبتي في الكتابة ؟ لا أظنني أوافقها . فأنا لا أملك ذلك الالحاح الذي يدفع الخلاقين لأن يكونوا ويميزوا أنفسهم عن بعضهم البعض .

ولكن رغماً عن ذلك يظل من الحقائق الطريفة أن نتكسب أنا وصوفيا أحيانا كثيرة من عوائد بعض كتاباتي التي تنشرها صوفيا بطريقتها الخاصة تحقيقا لرغبتها في ذلك . وباسمها هي تنفيذا لشروطي حول ذلك . وأيضا من الطريف للغاية أن تثير تلك الكتابات هرجا يشبهها . ليقوم المعجبون بعد ذلك بالتودد إلى صوفيا والتمسح بكاتبتهم المفضلة . كنا نضحك كثيرا ونسر بالنقود أكثر . في إحدى المرات التي ناقشتني فيها صوفيا بذات الالحاح الذي كنت محتاجا إليه لأنجح في الكتابة . وكان النقاش حوله أيضا . قالت لي بطريقة طفل يطالب بدمية :

- الذي يسمح لنفسه بأن يمتطي ظهرك لن تحتاج إلى مبادئ كي تنزله . يجب أن تفكر في الكتابة بجد وأن تكف عن كونك أبلها .

أجبتها بلسان أدخره للمراوغة :

- للبله دور عظيم في الحياة . والبلهاء إن لم يكونوا قادرين على إثبات أنهم أذكياء فإن وجودهم على الأقل يكون الدليل على أن الأذكياء ليسوا هم البلهاء .

تناومت عن الجدية التي طرحتها صوفيا بيقين أنها تحبني . فالرجل الأميبي نومه موارب كالباب . ويقظته ضلت إلى الداخل . قالت لي :

- أرجو أن تكون جادا معي . أنا لا أتهمك بعدم الأمانة وإنما بالتقصير . إلى متى تحب أن تتباكى عليك ؟ ليس هنالك أدنى موهبة في أن تبقى الرجل الذي لا يعترف بشيء وهو نكرة لا يعرفه أحد ليعترف به أو ينكره .

- أنا لست مهموما بفكرة التحقق من الرجل الذي يجيد الكذب في المجلات والصحف . وإنما بفكرة التحقق من الرجل المكذوب في قاعه . إن الإنسان أصبح مشكلة . وحتى مشكلة هذه فإنه لم يصبح مشكلة محترمة . فهنالك دهليز بداخلنا لا نشعر به ينمو فيه رجل كنبات الظل ...

قاطعتني صوفيا قائلة :

- يبدو أن رأسك بدل أن يوضع فيه عقل تغوط فيه خنزير .

وجدتها فرصة لتطويل المناورة أكثر فأجبتها :

- إن عملية وضع العقل في الرأس نفسها تغوط يرد للخنزير كرامته المهدرة . لقد كانت إضافته كاضافة الكابح للقاطرة . فقد كان الإنسان في الماضي كائنا غيبيا جبارا ومطولا. والعقل جاء كدخيل في مرحلة ما ليلخصه أو ليغشه . وذلك سبب أن يمتلك البعض هامش مقدرات فوق العادية . فربما هم لم يتخلصوا من بقايا ذلك الكائن القديم كلية . أو ربما أن تكوينهم اهتدى إلى جذوره فرغب في العودة ولكنه لم يتقن ذلك جيدا بعد . إن العقل في اعتقادي لم يأت إلا لكي يجعل الانسان كائنا متواضعا . فإن تلك التنزلات التي تفاجئنا أحيانا نادرة هي بلا شك مخلفات كائن أسطوري . ويمكننا أن نقول ولو إلى حين أن الانسان أسطورة أفسدها العقل . وما أقوله ليس ردة عن التطور . وإنما نبش لآليات التطور العملاق .

حاولت صوفيا أن تطيل النقاش أكثر من ذلك . وحاولت أنا أن أنهيه . فقد كنت مرهقا وملتصقا بها . قلت لها محاولا أن أقلد لهجة ديكتاتور إفريقي :

- الذي يستطيع أن يقنع مسدسي بلسانه فليجادل .

أجابتني صوفيا مع ابتسامة متوترة :

- ولكن البندقية ليست حلا .

- لقد حددت موقفي من الجدل . إن أضفت كلمة أخرى فسأعتبر أن محاولة الإقناع قد بدأت . ولن أجيبك إلا بسحب مؤمن سلاحي .

ضحكنا معا وبإهمال . فقد كنا نصل إلى هذه النقطة كثيرا ولا شيء يطرأ على علاقتنا . فحينما يختلف شخصان حول القيمة التي يرجوها كل منهما للآخر فسيظلان صديقين إلى الأبد . أما إذا اختلفا حول القيمة التي يرجوها كل واحد منهما لنفسه فسيصبحان عدوين في الحال . قربتها إلى أنفاسي بذاك التوقع المعروف والذي يربك رغما عن معرفته . كتقريبك عود ثقاب إلى شمعة مضيئة بإرادتك وتعجز عن احتواء الرعشة الخفيفة التي تجتاح يدك حينما يشتعل العود .

ألقت بي أنفاس صوفيا في ذكرى تلك التجربة التي لا مثيل لها في حياتي . إذ أن كل الجنس الذي خبرته في تجوالي انحصر لي في أنه صلب يمتد لي من أمامي ويحتوي على دفء شخص ما .

فأقضي فيه حاجتي ثم أدفعه إلى أمامي مرة أخرى . ليس تمسكا به ولكن إحتياطا له .

المرة الوحيدة التي أقنعتني بأن الجنس جزء من الأمام الذي يغريني . وحققت لي بعد شعور أنني وجدت الخط المستقيم ، ضربة الفأس التي تهوي بها قوة خفية فتحذف صلبي الذي يؤخرني. هي تلك المرة التي لم أفهمني فيها إلا ونحن كوحشين يتصارعان على الحشائش المبتلة . في مجاهيل غابة نائية لا أنس فيها إلا العواء . صلب الوحش العاتي واندفاعته إلى أسفل مع استقامتها. توحي بأن الوحش سينغرس كله لا عضو منه فحسب في مهبل الغابة ويخطئ الأنثى .

وتبدو الأنثى من كثرة ما تصدره من حركات مقاومة في اتجاهه كأنها نسيت أنه ذكر . وأصبحت كمن يتصدى لثقل السماء التي انهدت عليه .

كان ذلك على متن أحد القطارات المتجهة إلى تكساس . الجو صحو . ولا يفسده إلا كثرة حركة الناس وصياحهم . والضجة التي يثيرها عادة الأشخاص المسافرون لأول

مرة . يمكنك في ذلك الصخب والازعاج أن تفقد أحدا أو محفظتك . أما أن تحظى بامرأة مع كامل خلوتها ! فذلك أمر سينكره من يملك أدنى فكرة عن المعقول . ولكن هذا معقول زمان . كما أنني رجل يريد أن يمشي رحبا بلا طريق . المحطة لا تختلف عندي عن مكمن أشجار بغابة مجهولة في شيء .

تفحصت المركبات باهتمام من لا تذكرة له . وانحشرت في واحدة تخص المهمين . فالمهم الذي بدون تذكرة . لا يساوي نظيره من غير المهمين . فتحت كتابا كنت أحمله معي وانهمكت في مطالعة نظيفة . فأنا عادة تتخلل رؤيتي ما يراه الغير . سمعت صوت فتى وفتاة يدخلان إلى المركبة ويجلسان بعد أن أصدرا أصوات تعثر خافتة . ولكني لم أعرهما انتباهي . حينما أعلن المضيفون ابتداء الرحلة عبر مكبرات الصوت سمعت خطوات أحدهما يغادر القطار . بعد أن تبادلا كلمات الوداع التي يتبادل فيها الناس منذ نشوء الكون ولا يرحلون . لم أكن أدري أيهما قد نزل وما كان يهمني . كانا خلفي مباشرة أو في الحقيقة أنا لم أنتبه لهما . وإلا لكان في مقدوري أن أحدد أيهما قد نزل . ولو لم تحدث لي تلك التجربة الخاصة مع الفتاة لما تذكرت شيئا من هذا الذي أحكيه بالمرة . انهمكت في مطالعتي لفترة غير قصيرة ثم وضعت كتابي لأشعل سيجارا . لقد أحدثت قداحتي صوتا لا يمكن اعتباره دوياً فحسب بل كأنما تقمصتها روح شريرة . صاحت الفتاة من خلفي بذعر :

- ما الذي هناك ؟

- الذي هناك رجل يشعل سيجارا .

كانت قد ملأتني روح شجار عاصفة . مما جعل الكلمات تخرج من فمي في مظاهرات صبيانية .

فسؤالها بتلك الطريقة واللهجة يوحي وكأن ذلك الذي هناك لا يمكن تمييزه عن بقية كراسي المركبة . أجابت بعد أن رمقتني بنظرات تختلس مرحاً حزيناً :

- أوه إني لا أراك .

ولأنني كنت متعجلاً للشجار ـ ذلك لم أعرفه عني إلا في تلك الحادثة ـ فقد أجبتها بسرعة :

- عاطفة عينيك لا تهمني في شيء طالما أنا أقف أمامك مباشرة .

كنت أقف أمامها كشيطان من غضب . فقد ازداد حنقي وأخذ دمي يغلي ويدحّن كاللافا. لافا حامية تقطر من لا مبالاة الصخر ورعونته . قالت لي معتذرة وبصوت مخنوق :

- أنا أقصد أنني كفيفة . لذلك لم أدر أن أحدا يشاركني المركبة . كما أنني لم أسمع أية صوت أو حركة لكل هذه الفترة . ولكن ألا توافقني أن صوت القداحة كان هائلاً ؟

لقد انخمدت كجمرة ألقيت في ماء . ثم تملكني ذهول يشبه نسيان الهدف الغريزي . وإحساس أن عليك أن تحمل مع الآخرين عاهاتهم وخطاياهم . وتمني لو أنه لم يكن هنالك هدف غريزي من أساسه . ولو أنك لم تذهب إلى هناك ولم تكن أنت بالتحديد . ما أحسست به تجاوز تخوم المواقف ولاح كحياة كاملة ورغدة التفاعلات . تطابق في محتواها أن تخروج لفناء حديقتك ليلا لأن البول يكاد يشق مثانتك . فتجد هنالك جثة قتيل مرمية في الفناء . لم أع نفسي إلا وأنا بجانبها وقد مددت يدي لها بكل تلك الفوضويات لأربت على كتفها قائلاً :

- لا عليك . إن كنت تصدقين أنها فتيلة القداحة . فأنا لا أنكر تآمرها علينا .

قلت لنفسي : هاأنت ذا اعتذرت ! مالك إذن ؟ عد إلى موقعك .

ولكن فوضويات أخرى تملكتني إذ أحسست بأني مررت يدي على أورغ حين ربّت على كتفها .

شعرت بنفسي كمطارد جريح اقتحم بيتا منعزلا . فلا بد له أن يحمي نفسه من أهل البيت كما يحتمي بهم تماما .

ري ، دو ، رويدا رويدا ثم أخذت تنتقل إلى الأورغ رهبة الكنائس الغابرة ووحشية التدين القديم . تأملت عينيها الزرقاوين كسماء بلادي . ويدي لا تزال على كتفها تشفط بقوة وخدر في نفس الوقت ، حيوات تلك الفتاة المشبوبة كالجحيم جمالاً .

انتشيت . فالجمرة التي تلقى في ماء كنت قد نسيت أنها تشفط الماء بقوة الرغبة في الحياة . فهي تكافح فجأة لأنها تكتشف فجأة أنها حية . حتى أنني صدقت إحساس ساعتئذ في أنك :

حينما لا تعني شيئا يعنيك كل شيء

حينما لا تقصد شيئا تقصد كل شيء

حينما لا تفكر في شيء يفكر فيك كل شيء

لقد وجدت اللغة والعقل من هذه الناحية ممتعان وطيعان . لدرجة أن بإمكاني اختراع مثل هذه الأفكار إلى أن تنتهي الدنيا . أو على أقل تقدير حتى يبلغ القطار تكساس . اكتشفت أننا لا نعي ما نقوله أو نفعله جيدا إلا عندما نصر عليه على نحو لا نعلمه .

لا أستطيع أن أقول أنني أصبحت كلي عيونا ترى . لأنها في الحقيقة لم تكن تقتصر على ترى هذه المتواضعة . بل كانت عيوني تحول كل شيء عقيم إلى صرخة امرأة حبلى .

لم تكن لحظة ازدحام بالجنس وإنما مرحلة بلوغ كاملة وجديدة انفجرت في ثانية بكل تفاعلاتها النفسية والعضوية في كيان رجل ناضج . كنت ولا أزال أصر على أن مضاجعة امرأة ليست مضطربة لا تختلف عن فحص طبيب لجنين بداخلها في شيء . لا بد من رائحة خوف مسعور في عينيها . لا بد من توابل أنكما تفعلان شيئا يهز الإنسان ويريعه . إذ من الواجب أن يرفس الجسد أثناء كسر عزلته .

ولكن الذي داهمني في تلك اللحظات لا يشبه هذه المقولة على الاطلاق . بل لا يشبه الجنس بالمعنى الذي نفهمه عليه بتاتا . فقد كنت أعتقد قبل هذه الحادثة أن المرأة خلقت لتوحي لنا بفكرة العادة السرية لا أكثر . وأن المرأة التي توجد تحت ملاءة أي رجل حينما يخلو بنفسه هي الأفضل . ولكنني بعد فتاة القطار أضفت لذلك المعتقد : طالما أننا لا نعرف كيف نجعل من هذه المرأة الموجودة الأفضل . ولذلك أسميتها فتاة القطار ولم أسألها عن اسمها أو أي سؤال من شأنه أن يعرفها كآدمية تسكن في شارع كذا ويمكن مهاتفتها على تلفون كذا . فقد ارتجلني تصميم بأن أجعل تلك الفيوض والتنزلات لا ترتبط بأحد يعيش على هذه الأرض وفي مدنها المتعفنة . لقد أكدت لي أن المرأة التي تباغتك من بين فخذيك كالمشجارة وبسرعة أفضل من تلك التي تبادلها الأحاديث التافهة وأنت تماشيها بطول أمسية كاملة.

فلنفعل ما نشاء وبأي طريقة . فإنه الجنس الذي سيظل ثأر الطبيعة الأبدي تجاه الأحياء . تأخذه باستبداد وبدون نقاش . هذه هي طبيعة الإنسان والقدر ومزالق الدنيا المبرشمة في القفا .

لقد اشتعلت فتاة القطار كامرأة لا ترتوي حتى حين يخلع الرجل نفسه ويلقمها فوهتها ، ولا يزيد بركانها إلا جحيما فوق جحيم .

ثم قمنا باستعادة ملكوت جسدينا . وحكمنا لأنفسنا في عالم حقيقتها بما تشاء حقا . فملكوت الجسد يقوم عندما تنقضي الشهوة . إذ يصبح التأمل حقيقيا . والعواطف تعني ذاتها بدقة ولا تزيد . وحتى الاحتياج إلى أشياء أخرى يصبح حقيقيا وغير مضلل .

أشعلت سيجارا بعد ذلك وكنت كلما أنفض دخانه تتحتحت بصماتي بدل الرماد . كنت أتجدد . إنها لحظات يموت فيها رجل ويبعث آخر . كنت مبتهجا ورغما عن ذلك فقد بللتني دموعي . بصدر إمرأة لا نعرفها نبكي لغاية يعرفها البكاء . لقد ألهمتني :

منتهى الحزن أن لا نفهم مرد الحزن

انبت وأنت تغالب جذورك

وابكي إن كان لك معنى في البكاء

لك التحية يا فتاة القطار . فما عدت أذكر منك سوى أني مانسيت . فقد كانت أشياء قابلة لأن تسكنك إلى الأبد ولا تمكنك من تذكرها إلا كضباب جميل .

عندما غادرت القطار حركت يديها لتقول لي وداعا . كانت إشارات يديها تتوزع في إتجاهات كثيرة ، لأنها عمياء . أو لأن الرحيل في كل إتجاه . لقد انطبعت تلك الاشارات في أعماقي كالايماءات أو الحركات التي يقوم بها قائد أوركسترا عبقري . للدخول في لحن غامض الجمال وعميق لدرجة أنه أصبح غريزة في جسد الآلات الموسيقية .

لقد منحتني صوفيا في بداية تعارفنا روعة مشابهة . ولكن ثق أن روعة فتاة القطار لا ترجع إلى الغرابة . إن صوفيا تمتاز بأمومة زائدة ومع ذلك فقد جعنا إلى بعضنا كوحشين جميلين . ثم أخذ ما بيننا لونا من طابع الإحتواء الأسري والتفهم . لقد كانت ضفتي . وربما أفيض عليها أو أنحسر عنها . ولكنني أبقى عندها إلى الأبد .

أيامي كانت تمضي كشريط سينمائي مبتذل . وأنا أبحث عن نافذة أعلى من قامة الريح الداعرة التي تمر . نافذة لا بد أن تكون في مثل قامتي كي أتفرج على ذلك الشريط من الخارج ولا أضطر للدخول والمشاركة فيه . كل ذلك والكتابة ترفض بقوة أن تكون للإحتراف . ولا تكف عن التهديد بأنها ستبقى مغامرة بائسة حتى الموت .

مكنتني تلك الفترة من التوصل إلى أن معارك (إنها معركة) نشبت لأنه كان هنالك

رجل . حاله كحال جاموس بري . لمح وحده وحشاً كامناً وسط أدغال مغفرة يتربص من بعيد . فلن يستطيع أن يدس بصره في عمى القطيع . ولن يكف عن التوجس والإلتفات حتى ينعزل عن القطيع وهو في داخله . ولا بد للعواء الضاري أن ينبع من أعماقه إن حاول أن يدس سمعه في لا سمع القطيع . والقطيع يندفع ناحية مياه الوادي يملأه استبسال شجاعة قوامها أنه فقد حسه الغريزي برائحة الخطر .

ذلك الرجل يقعد كل يوم في سوق المزدهر ليتأمل البنايات التي نشأت في جسد التاريخ بجمال خاوٍ لدرجة التبلد . يسيطر عليه جوع من جنس جوع الغابة . المركب من خام الغرائز ومغالاتها . يراقب المداخن التي لا يخرج منها إلا الدخان في كل يوم . يقلّم أظافره بأسنانه بعد أن يمشط بها شعره . يرسم على الأرض معارك من أجل التسرية ، حروب بلا خصومة ، ومؤذنين ينادون بأن الحضارة إن كانت بنايات ملونة فإنها تطول كي تصعد روحها إلى السماء .

يخط على الأرض رغبته كوليد نبنيه لا من الطين ، صرخة نطلقها حين تزدحم الشوارع فينتبه الإنسان لا الناس ، نقود ليست كتذاكر الشيطان ، تسميع لذواتنا في المركبات العامة فنحفظ بدون أخطائنا النحوية ، تعري يظهر من أجسادنا ما هو ليس للّذة ، ومجرى لمشاغيلنا يجعل الكل راضي عن مهمته ومعناه .

وفي صباح كان يمكنه أن لا يتميز عن تكراره السابق وقف ذلك الرجل أمام أحد المارة وسأله :

- أتأتي لتأخذ الخضار لبيتك كل يوم ؟
- هذا صحيح . ولكن لم تسأل ؟
- هل أنت تسكن معدة كبيرة من الطوب والناس ؟
- لا .
- إذن لماذا لا تفكر في غير هذا ؟
- أولاً أنا لا أفهمك . وثانياً لا أريد أن أفكر إلا في هذا . ما دخلك أنت ؟
- يجب أن تفكر .
- ومن أنت لتفرض علي ذلك ؟
- أنا الشق الآخر منك الذي لم تتعلم كيف تشتري له خضارا يستسيغه .

- بالله ، ألم يعد ينقصنا سوى أن يصير المتسولين فلاسفة !؟

ولم يجبه رجل السوق إلا بإرسال ساطوره الغليظ شواظاً من جهنم على رأسه وهو يصيح : ياهو ياهوو . وانتبه الناس إلى ذلك الصباح الذي بدأ على غير العادة ، بدأ بهم ، بالأنفس .

رأى أحدهم المشهد فصاح في غلامه :

- لقد طوقت الأعضاء آفاقنا كثيرا . فلتكن هذه الصولة تطويقة الآفاق للأعضاء .

أين ساطوري ؟ إن الذي مع الله ليس ملعونا من الجميع . والذي مع الشيطان ليس ملعونا من الجميع . أما الذي بينهما فلا بد أن يكون ملعونا من الجميع . إليّ بساطوري ياهو ياهوو .

في جانب آخر من السوق كان يقف أحد الرجال مقبوضا عليه في دين لم يؤده . كان يقول للدائن الذي هما في متجره :

- اقتلني إذن فإن دراهمك أثمن من روحي .

يجيبه التاجر بصوت متكاسل :

- إن قتلك يكلفني أن أنهض من مكاني .

ولكن الجلبة تصل إلى باب المتجر . قرقعة الفؤوس وصليل السواطير تلف مسامعهما فيفقد الرجلان موضوعهما وينحشرا تحت جرار البارود المعبأ للبيع . فيجدا أن مساعد التاجر كان قد سبقهما إلى هناك . يبادرهما الحديث قائلاً :

- لست سكيرا بما يكفي لأتميز بلا مبالاة الجنود .

خارج المتجر كان يرتمي رجل لن تكمله أشلاءه المتناثرة كما كان إذا جمعت . فقد كان عملاق الجسد وعرف عنه أنه كان يكرر دائما قول : (لقد غذوني غباءهم كيف لا أعيش تائها وضال القلب) . وإلى جانب أشلائه كان يحوم رجل كالضفدعة وهو ينطط فرحا ويصيح :

- لقد هزمته هزمته . لو كنت هجمت عليه بقوتي لما تمكنت منه أبدا . ولكنني هجمت عليه بضعفي وخوفي . وما أعنف أن يهجم عليك شيء بانهياراته . حقا يا له من عملاق ولكن القامة ليست امتداد الجسد إلى أعلى .

أحد القواد المتقاعدين كان يقول لأحد أصدقائه الضباط في أثناء مرورهما بالسوق :

- الشجاع أكثر الناس شعورا بالخوف في لحظات الخطر . لأنه يعلم أنه لن يتراجع . أما أمثالي فلا يمكنك الحكم عليهم . إذ أن لامبالتهم موهبة في حد ذاتها . والعواطف بالنسبة إليهم واجب أو مهمة تكتمل بها صورتهم الاجتماعية .

عندما انتبه القائد إلى أن المكان تملأه الجثث هتف بتلذذ :

- ياه ..إنها معركة .

اقترب القائد من أحد القتلى ورفع وجهه المضرج ليعلق قائلاً :

- بالفعل هو متبل بالتراب والدم . إنه موت غير مغشوش .

قلب القائد القتيل إلى جنبه الآخر وألقى نظرة ثم أضاف :

- إنه أصلي تماما . أنا أعرف ذلك .

التفت القائد بعد ذلك إلى زميله وصاح فيه :

- ألم أقل لك أن الموت ليس غبيا كالنوم ليستوجب عليه أن يقبضك بعد لحظة نعاس ما . وليس ذكيا كبائع اللبن ليخمن أنك غير موجود حينما يطرق بابك ولا يجيبه أحد ؟

ثم أخذ القائد يتساءل بانفعال جنوني :

- أين هو ؟ تبا ، آه إني أجده . يا لساطوري العتيق ياهو ياهوو .

كان أحدهم قد ألقى بشعلة في المداخن التي حميت . مما جعل الخفافيش لأول مرة تمرق من المداخن مذعورة وتنتشر في الجو بدل الدخان .

أنت تستطيع أن ترى ذلك بوضوح كما في إذا اقتربت من المداخن قليلا . أو إذا ارتفعت ثلاث شهقات فوق سطح جثة صديق القائد مباشرة . فالصداقة عند ذلك الرجل لا يبرر لها إلا القانون وشح الفوضى .

الأيام كانت تتشتت خلفي وأنا لا أزال أطالع من الداخل . كراكب قطار قرر أن يذاكر الريف . كل الريف . عبر نافذة وحيدة وعقيمة إلى جانبه .

أعيش كالطائر الذي فقد سربه . الأفق يمتد أمامه حتى يُعي جناحيه . والأرض من تحته صقيعة تمتد حتى تغتاله الوحدة .

عزلتي تخلو من الكون تماما . فليغمرني هذا النور . ألفة أني لوحدي . والوجوم من حولي يضرب كموج البحر :

لا يطرق طينتي أحد
أفتح لوحشة الصمت
الذي تحفظ فيه الطبيعة سرها
وتشيع روحه الغاربه
في المجرات وفي الأبد
أنا الآن أكبر من حدود الحنين
وتنويهات الذاكرة
أنا الآن يقظة الموتى
واحتضار كل شيء

ثم تخطت عزلتي مرحلة فصلي عن الكون وأخذت تفصلني عن نفسي :

الليلة في وحدتي الحقة
كبريائي لا يبلغني
ورغبتي ضلت طريقها إليّ
مع الريح ألقيت دمعي
وتركت حزني للعدم

سئمت أمريكا التي كنت في السابق سأنتحر إن لم أذهب إليها . رغبت في أن أجد نفس الرائحة التي وجدها كولومبس حينما وضع قدمه على تلك الأرض لأول مرة . رائحة الأرض التي تنخلق في عرض البحر ومن ملحه . كنت أطمح إلى أن أبلغ مكانا تحجبه عني البحار بالفعل . ولا يدل على وجوده سوى أن النوارس تحوّم في البحر بعيدا عن الشاطئ . ولكن ما أحبطني أن طعم الأشياء والناس لم يتبدل عندي إلا يسيرا . فالطعم الكريه الذي تعودت أن أجده في كل مطعم لم يبرح طبيعته ولؤمه . لقد كتبت في مذكرتي التي تركتها لصوفيا بمناسبة الطعوم هذه :

الليمون ذو طعم
يمنح وجه الحسناوات حقيقته
ويعلن وجهي
أجمل بلاد الفوضى

لم أجد كالعادة مبررات لمكوثي أو رحيلي . فظلي من خلفي لا يزال يحمل مسدسا ولا يحمي ظهري الاسراع والتلفت . قررت أن أعود إلى قومي الذين فيهم من السذاجة ما يبرر لقيام حرب ضدهم .

ثم أضفت إلى مذكرتي لصوفيا :

لكل الأشياء حنين يجذب إليها

حتى الأشياء الغير مهمة

تباغتنا بحنينها ذات وقت

صمت الجماد يتسرب إلى سمع مثله

كل الأشياء على اتصال ببعضها

ثم عدت بعد رحلة غثيان طويلة إلى ريف السودان الشمالي . خندق السباريت كما يقول الفليل . وجدته مكانا يصلح لأن يبدد فيه أحد عمره . ولكن لا طائل من وراء أن يقيم فيه أحد أو أن يغادره . فالذي ولد فيه محصن بالميلاد ضد الحياة كما هي عليه في الخارج . وضد الموت الفوري بالداخل . هذا البلد يمتلك خيارين فقط :

(يا تعدي يا تخلي المراكب للعرق) . إنني لا أدري إن كنت قد استسلمت لمصيره هذا أم لا .

فأنا رجل كلما تحسس نفسه ووجدها لا تزال بداخل زهوه اطمأن . شعرت بأنني قربان لضياع أبدي . فالعالم الذي تركته ورائي شخصي جدا وبارداً لمنتهى التصور . إذا أرادوا فيه تصوير مشهد لقبلة حب حارة فلا بد لهم من دوبلير . البشر هناك حفنة من التروس من ورائهم إرادة المهندس الجاف الذي يدير الماكينة . والبشر هنا شخوص ساذجة في قصة . من ورائهم إرادة القاص الساخر الذي يحبك القصة . ليس ثمة كون حقيقي تطلع فيه الشمس من أجل الإنسان . وبعيدا عن أن ذلك قدر وجدت نفسها فيه منذ الأزل . ربما الحياة ليست بائسة في مجملها ولكن أكثر ما يصادف الإنسان منها ما هو بائس .

قصدت الحارة التي ولدت فيها بإحساس كئيب على كل حال . انطلقت في شارع بدأ رحبا ومعتدا بنفسه . ولكنه بعد امتداد قصير له وهو على تلك الرحابة فضل أن يجذب إلى داخله بعض المباني . واكتفى من أبهته تلك بزقاق ضيق يخنق المشي .

البيوت لا يدل على أنها بيوت إلا دخول الناس إليها وخروجهم منها . مما يجعلها تلوح

كمأوى للناس قبل كونها بيوتاً . الذين قصدتهم كانوا لا يزالون هناك . أمي عانقتني بأحاسيس من يعانق وليده . وأنا تلقيت عناقها ككائن لا يحس تجاه ميلاده بمنة سوى أنه موجود . أبي رفض أن يسلم عليّ . وبكل عفوية فاتني أن آسف على ذلك . كان يجلس على مصلاته عند حضوري . وربما أسرع إليها عند سماعه لخبر عودتي كي يترك لي الأرض .

ألقيت عليه نظرة من نوع التي تفحص كالمس باليد . لم يعد يمتلك شباب قلعة الشناوي القديم . وإن كان لا يزال يتحشرج عنده صوت الريح كبوابة كانت متينة ثم ترهلت . جلس مقاصدا النافذة الوحيدة في تلك البناية التي هي أشبه بالممر . حيث يجلس كان حيث تلقي النافذة بضوئها . لقد حسدته بعض الشيء . فقد بدا لي وجهه يطل على الضياء في الخارج . ونفسه تمتلك طاقة توفر لها راحة الباطن ولا تذهب بها أبعد من المصلاة . قلت في نفسي : (المهم هو أن يرسو قاربك . حتى ولو على فك تمساح) .

الهرج الذي كان يحدثه الناس من أجل قدومي كان يتم في مكان بعيد لا يبلغني إزعاجه .

كنت كالمخمور بعدم معرفتي لأصول الترحاب بالناس . أختي منال بكت في حضني كما لو أن عودتي إليهم موت . وأنا لا أزال بعيدا كأنني عدت لأتحقق من جلافتي نحوهم .

ماذا أفعل !؟ فأنا لم أعد لأنهم يعنون شيئا . ولا حتى ألفتهم كالتدخين والسهر . لقد عدت فقط لأن طريقي مر بهم . نزلت بديوانهم ثلاثة أيام ثم سافرت إلى الريف الشمالي وبقيت هناك لمدة شهر . انتقلت بعده إلى مدينة ود مدني .

في الطريق طافت أمي في خاطري كربوة مخضرة تجشأتها الرمال في قلب صحراء قاحلة . شعرت بدفء بسيط ولا يختلف كثيرا عن إحساسي بصوفيا . كنت أتذكرها في أمريكا كعروس نيل يلقيها ابنها بدل السلطان بجوف النيل . سألتني عنها صوفيا ذات مرة قائلة بمرح :

- هل هي حلوة ؟

- نعم إنها جميلة . ولكن ليمنح وجهها لطابع بريد لا لزوج .

على طول الطريق إلى مدني كانت تطالعني البيوت التي لا تمتلك دليلا واحدا على تلك الشبهة .

عندما نزلت في محطة المواصلات المركزية لم أكن أقصد وجهة بعينها في المدينة .

تمشيت من هناك إلى أن بلغت شارع النيل . كنت أنوي أن أقضي الليل في غابة أمبارونا . ولكن حالة خدر غريبة ألمت بي بحرص وتأني كما تلم الشيخوخة بالبدن . شعرت بالاعياء فدخلت إلى واحدة من حدائق شارع النيل واستسلمت لذاك الخدر . كنت أسمع أصوات المخلوقات الغامضة وهي تقضم أشياء أخرى غامضة في الليل . طقطقة السقف وفرقعة مفاصل الحشرات . أصوات الزحف المكتوم . وقع الخطى المسرعة التي لا تقترب ولا تبتعد فكأنما تركض في مكانها . العالم الحقير الغير مرئي كله أخذ يدب ويتنفس . كنت كمن ينام في برزخ . فقد اقترب مني غموض كل ما هو حي ونائي . كل ما هو على صلة بالحياة وغير متضح الوجود . فجأة انفجر صوته من ورائي .

نعم صوت عاطف بكل ما له من ارتباط بماضيّ . لقد أخرجني من بئر الهلاويس تلك ليس بطريقة إنتشال الدلو من عمق البئر . ولكن كما يجذب المطل على البئر إنعكاسه من على الماء حين ينصرف . نهضت متثاقلا كيفما تنهض الأشجار . ثم ضممته إلى صدري كبعض من ثمار لي أريد إنضاجه . فقد أورقت بعيدا عنه ولا بد أن أتأكد إن كان لا يزال هنالك سماد وملح يسعفان حنيني إليه . حاولت أن أبكي فلم أستطع ولم تظفر عيناي إلا بقراص الملح الذي يعقب الدموع . لعله شعر بفشلي في البكاء فضمني إلى صدره كي لا تحرجني أمامه عيوني الجافة . شعرت به وكأنه يعتذر لنفسه بذلك الصنيع عن جفائي . قلت لنفسي : (لا داعي لإعتذار فإنه إحراج تعده الطبيعة) .

قال لي بصوت تعثر برفق في أنقاض قبلته التي أنهاها بتحرير فمه للحديث :

- هاأنت ذا مرة أخرى يا كمال في بلادنا . بلاد الأساطير .

- المشكلة ليست الأساطير . فأينما ولد الإنسان ولدت الأسطورة . المشكلة أننا في الوقت الذي نعيش فيه أسطورة أبو اللمّاس يعيش الغربيون أسطورة النظرية العظيمة التي تفسر الكون . ليس المهم أن لا توجد أساطير . ولكن المهم أن توجد الأساطير الصحيحة بمواصفات زمانها .

- لقد أهدرت عمرك يا كمال !

- وأنتم ؟ لا أظنكم اكتشفتم طريقا يمكن السير فيه دون أن يهدر العمر . كلنا مصوبون باتجاه الموت وحياة الانسان مداخلة قصيرة جدا تكاد لا تلحظ في حياة الطبيعة الشاسعة . الإنسان يولد لائقا للموت وعصيا على الحياة .

- ولكنك لم تستغل هذه المداخلة . فلا أظنك قد عدت بغير الحسرة .

- طالما أننا جميعا نموت ونحن لا نعي ما عشناه . فالاستغلال الوحيد لهذه المداخلة القصيرة الذي يمكن الجزم به هو كم صار بعدك من القبر . أما الحسرة التي تتحدث عنها فلست محظوظا لأعود بها بكل هذه البساطة . إن الحسرة لحظة متقدة جدا بالحياة . شعور أن هنالك ما فاتك أو أن هنالك ما كان يجب أن تضعه في الحسبان . ذلك يعني أنك تطارد أشياء بعينها وتحلم بقبض أشياء محدودة . أنت إذن عضو في ميكانيزم الأحداث والحيوية . تؤمن بالتبادل التجاري والزيارات الودية وغيرها من الشؤون السخيفة للحياة . وهذا ما خرجت من أجله ولم أعد به . ولكني سأمشي حتى تهترئ الدروب . فإني أعلم أن حب الرحيل بذرة تؤسس للموت . أو شيء يخلص للخروج من كل ـ هنا ـ خروج أبدي وعظيم . لآخر ما فينا من أحد .

- إذن فلا زلت كمال !؟

- ومن غيره !؟

- لماذا عدت إذن ؟

- ياه . لا زلت تعتبرني مسؤولا عمّا يجري ! لقد أعادتني الأرواح الملثمة التي ذهبت بي قديما . كما أنكم أيضا إتجاه مشي .

ثم أطلقت ضحكة نحيلة تصلح كمقدمة ترشد إلى أن الذي يعقبها من حديث يمكن حمله على غير محمل الجد . وأكملت قائلا :

- ربما عدت للقبر الذي يوصي راقديه بأن الحياة معنى أن تمسك بتلابيبك الأرض .

قال لي وفي عينيه خفوت حزين يكاد يلاشيهما :

- هل تذكر هذه الأبيات ؟

ثم قرأ عليّ بصوت رهيب الخلجات :

حين نذعر من بعضنا

ويلفنا صمت الحذر

أسمع تكة المسدسات في قرابها

وأتزحزح لأكون قريبا من سيفي

قلت له وقد شعرت بتلك الكلمات تعض أحاسيسي وتجذبني نحو هاوية أشعر بها فقط ، ولكني لا أراها :

- إنها كلماتي . ولكني لا أظنها تعبر عن حالنا الآن .

أجابني عاطف بثقة :

- ربما هي تعبر عن حالنا ولكن بوجه لا نعلمه عنها .

لم أتعجل لنفي ما قاله فربما هو محق فيما أبداه من تشخيص . ولكنه أدهشني حينما أردف قائلا :

- لا عليك . الشعراء جسد الحقيقة في زمن مجاعة الطاعون .

الدهشة على وجهي كان يمكن لمسها . لقد استكثرت عليه أن يقول تلك العبارة . إنه ذكي بحق . ولكن ليقول أشياء لن تناسب هذه الأبيات مهما اجتهد . لم تدم دهشتي طويلا فقد استرسل موضحا بعد أن لمح في عيوني تلك المباغتة التي باغتني إياها :

- لا تعجب إنه مقطع شعري لك أيضا . ربما دار بخلدك أنني لست الشخص المناسب لإختراع مثل هذا الكلام . ولكن صدقني إن قلت لك أن ذلك لن يشرفني أبدا . إن ما فعله بك هذا الكلام لم تفعله الرسالات في أنبيائها .

ثم أضاف ضاحكا :

- إن كان هذا زمن مجاعة الطاعون فلن يسر أحدا أن يكون وجبة له .

قلت في نفسي : (لقد فهم أنني دهشت وإن لم يدرك من ذلك شيئا . إنه يفهم بدرجة سطحية لا بأس بها . ولكن الاختلاف بيننا ليس قائما على عامل الفهم . إنه إختلاف قائم على عامل الخلق والابتكار . فلن يفهمني كما ينبغي إلا إذا استطاع أن يستشعر المفهومات في عجنتها الخام وأغوار الحس) . لذلك لم أسفّه ما قاله . فمنذ الابتدائية أنا في جهة والأطفال في جهة . كانوا يتعجلون لدخول مكة مع حمزة . وكنت أفارقه على أعتابها تمسكا مني بالإنسان مرؤوس الخطى والوحيد .

هم يحبون التجول معه في شعاب مكة ليسفّه لهم الكفار . وليكون لهم البطل الذي يتمنون طاقته ليعيشوا بها مهابين بين الناس . وكنت أريده حمزة المقفر . الذي يرد جبين جواده سراب الصحراء ، الذي يدندن مع أصوات الريح وعواء الليل وخوار الوحوش ، الفتى الذي يحرث ظهور الخيل بصلبه ، حمزة المأهول بالرحيل والعزلة .

كانوا يفهمون التاريخ كبحيرة وكنت أفهمه مجرى لنهر . هز عاطف رأسه بأسى وهو يقول لي :

- العتمة تسجي قلبك يا كمال . لقد جعلته بئر ظلال قاحلة . ليس بوسعها أن تسقي إلا ضالات الطرق .

- أنت مخطئ يا عاطف . لأن الأشياء المعتمة لا تكتظ بالظلال . إذ أنها تبوح بها . الأشياء الشفافة وحدها التي تبتلع ظلالها .

تنهد عاطف بطريقة مسرحية ثم تطلع إلى وجهي دون أن يتأمل فيه بعمق . أو راجعه كاستذكار .

فبدا وكأنه يقارن بعض الأشياء التي طرأت على وجهي الجديد مع مطالعة قديمة لوجهي يحتفظ بها منذ أيام الدراسة . ثم سألني بتحسر :

- هل تذكر سلمى ؟

وسلمى هذه فتاة زعمت بأنها تحبني وأنا أكدت لها بأن هذا ليس موضوعنا . قالت لي :

- تزوجني .

وقلت لها :

- لست أكبر تساؤل في حياتي لأتزوجك .

أردف عاطف بعد سؤاله عن سلمى قائلا :

- لقد أحبتك سلمى حبا عظيما ، من أجلك لا من أجلها . لم تكن أنانية حتى في شوقها إليك . كانت تشتاق إليك لتمنحك ثمار لقائها وليس لتجنيك . قالت لك : كن لي . وأنت لم تكن لها سوى شجرة الصبار غلفاء الشجر ومنزوعة البركة .

لقد هزني تشبيهه لي بالصبار وأفرح في الرجل المغرم بالإبداع حتى ولو كان إساءة شخصية . ولكن هنالك أحد ما من الذين يسكونني لم يكن راضيا عن ذلك المجادل الذي يفترض أن عالم الفتى الأميبي يمكن تنقيته بالزواج أو بغيره لنكتشف أنه أعظم ما لدينا من ضمير إنساني . ضحكت . فبعضي يؤسس لكل غريب عني . والرجل الأميبي ليس متأكدا من بطلان وجوده فحسب . بل حتى بالذي هو يمتد أمام وجوده من سراب .

ومضى صوت عاطف جارفا وعميقا كنهر لا يشيخ . واندفنت أنا تحته كحجارة شلال

باردة ومتفائلة السواد . أقبع في تراص جامد . ووجهي يطل على الظلمة التي تختبئ في قوس الفراغ المثبت ـ كقوس لأحد الآلهة القديمة ـ بين الماء وجسد الشلال . أرهف السمع لتشظي المياه والتيار على بعضي المتناثر أسفل النهر . مضى صوت عاطف العميق لدرجة الأبدية قائلا :

- كراستك التي نسيتها معي مكتوب فيها : (لقد أدركنا الدنيا والحبيبات فيها بلا رحيق . والأمهات أثداءهن للّذة في فم الغريب . والأباء هم ذلك الغريب . لقد مضى زمان الحبيبة التي تطوف على المصابيح بالزيت . والأم التي تلدنا بلا تساؤل عاق . إنه آن الهواجس الكبرى وغامضة . آن منا في القلق والريبة الفاتحة على طول الحياة). ولكن فتاة كسلمى يا كمال لم توجد في دنيا رجل من بني آدم .

تضجرت بعض الشيء . فأنا لا أرفض محاكمته لي على أنني رجل ملعون . ولكن الذي لا يفهمه هو أنني لست ملعونا لسبب معين . ولا أنني أقصد أن تكون لعنتي ضد أحد . وسلمى تلك التي يتحدث عنها كنت كأنني أسمع بها لأول مرة . أو كأنها نكتة سمجة تسمعها للمرة الألف . كما أنني لست إلا رجلا من زبالة . فلا يجوز له أن يسألني عن مصير أحد .

ومضت دوامة نهره تتدفق بمعدلات أضخم . لتزداد في المقابل كثافة الظلام الذي أطل عليه . وليتمتن قوس الفراغ ذلك ويلوح أكثر إلاهية . مضى قائلا :

- لو كنت كل أحلام حياتها لكان بإمكانها أن تستبدل تلك الأحلام بأخرى . ولكنك كنت الحياة المخصصة لكل أحلامها . فلم ينبها من الأحلام بعد ذلك إلا الجثث .

شعرت بالرجل الأميبي ينازعني مقاطعة عاطف أو بالأحرى السخرية منه . ولكنني استطعت أن أكبت الضحكة في عيوني ثم أفلت إبتسامة باهتة من فمي . تلفتت إبتسامتي غريبة ومبهمة ثم مضت في حال سبيلها . وهذه إحدى ملكات الرجل الأميبي المعتوهة . إنه يستطيع أن يمنع إنفعالاته من بلوغ عينيه إن رغب في ذلك . بالرغم من أنهما الشاشة التي تظهر فيها تعابير الإنسان لا إراديا . فقد خنقني فضول هبط علي فجأة وعلى غير العادة لمعرفة مصير تلك السلمى وكأنها آخر فرصة فضول تتاح لي في حياتي . ولما كنت أؤمن بأن إنعكاسك في أي مرآة ذكية سيزيد على مرآك ببعض الشتائم ، فقد سألته متعجلا نهاية القصة :

- اختصر يا عاطف . هل انتحرت ؟

- لا . ولكنها تزوجت رجلا الانتحار أفضل منه .

- بل الزواج نفسه فكرة أفضل منها الإنتحار . قل لي يا عاطف هل تزوجت أنت ؟

- نعم .

- وماذا فعلت بتلك المرأة التي تحالفت معها فيما يسمى بالزواج ؟

- أنجبت منها طفلين يملئان عليّ حياتي .

لم أستطع أن أنتصر على الضحك هذه المرة . فسألني :

- ما الذي يضحكك ؟

- ما يضحكني فكرة أن الحياة كالجوال والأطفال عبوة مناسبة لملء ذلك الجوال .

قبل أن يجيبني قرأت عليه :

رغوة البحر شهوة أعماقه للخلود

لأن يتمدد مهولا كالآفاق

وبلا حدود

تلجلجت في فم عاطف بعض الجمل المبهمة ثم أبان قائلا :

- لك خيال جيد لولا أنه مريض .

- الخيال الذي تفتك به أمراض جمال شتى خير من واقع طبيبه الوحيد النقود .

صاح عاطف بانتصار :

- هنا إذن نلتقي بالفيروس .

أجبته على الفور متهكما :

- هنا إذن برنامج إذاعي للمشاركين الأغبياء .

- لذا ....

قاطعته أو اختصرت على تحليله طريق الوصول للاشيء . فالذي أكثر يقينا في نفس راعي ماعز جاهل واستيقظ باكرا . أن حقل جاره تحت مشيئة سوائمه هو قبل مشيئة الآلهة . لذلك أخذت تلك اللذا التي أراد عاطف أن يبدأ بها هرطقته ثم أكملت قائلا في سخرية سافرة :

- لذا لو كنت حبيبتك يا عاطف فسأقول لك : (أحبك لأنك تضحكني) .

لم يغضب عاطف كما عهدته . كان يسمي عدم غضبه ذلك بالحلم . وكنت أحاول أنا أن أقنعه بأن حصته من البرود رائعة ويمكن إستغلالها على نحو أفضل . ولكن يبدو أن طبخي لنكتة هو صلصتها كارثة تستنفر طوارئ المعدة . فقد تغير وجهه كمن يعاني من مغص حاد . ثم قال كلاما كثيرا أهمه :

- سأتركك للمصير الذي يشرفك . ربما هذا المقطع الشعري لبشرى محمود يعني شيئا لديك .

ثم أطرق برأسه في صورة حزينة وقرأ :

دون أن أقصد

يقابلني في السكة الوصول

فأجيئك كالطريق

لا يقصد شيئا من مجيئه

هاهو عاطف يقول شيئا ذا بال . ولكن من هو بشرى محمود هذا ؟ سألته . فأجاب :

- إنه شاعر . الناس متأكدون من جنونه كتأكدهم من عبقريته . يعتبر وجوده في أي مناسبة عامة مخالفة يعاقب عليها القانون . دور النشر تفضله لأن هنالك من يقرأون له . والحكومات لا تطيقه لذات السبب . دورة حياته تتلخص في كتابة شعره داخل المعتقلات والسجون . ثم خروجه لفترة لا تكفي لغسل ملابسه . يقوم فيها بقراءات شعرية داخل الجامعات . ليعود بعدها بتهمة التحريض للمعتقلات من جديد كي يواصل كتابته وهكذا .

اصطفى عاطف كلمة هكذا الأخيرة بتحقير خاص . وقلت أنا ردا لا يشبه أن يكون موجها إليه . قلت راميا ببصري ناحية المراكب التي بدأت تغطس في غبش المساء وهي في طريقها للضفة الأخرى من النيل الأزرق :

- الشعراء النظيفون عادة تنظفهم الحكومات . وهم كثمن لذلك يصيرون نظيفين من كل شيء .

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها ببشرى محمود . فقد كان من الأسماء التي توهجت بعد رحيلي . ولم أكن أدري أن نفقا معكوسا كذيل العقرب ـ حلزوني ويطفح بالسموم . مدخله يلسع ومخرجه يقضم ـ سيجمعني به بعد ثلاثة أشهر فقط . إنه أكثر مخلوق استنفر حيرتي . لأنه ليس بساذج وليس بمدرك على طريقتي . ناقشني بشرى في

السياسة فقلت له رأي القديم فيها . بأنها لن يوفق أحد في انتقاء عبارات تليق بوصفها إلا الفليل . إننا نولد هنا كي تبتزنا أرض خلاء باسم الوطن .

كل يوم والقيود تنمو في أيدينا كالأظافر . برنامج أتفه ديكتاتور يوضع بادعاءات أوسع من الرسالات السماوية جميعا . ورغما عن ذلك لا يسع لمؤمن واحد .

أما الديموقراطية فهي قيلولة نصف العام التي تحضر البلاد لمجئ ديكتاتور أكثر عوراً من سابقه . والسياسة عندها تصبح كتشينة . الجوكر فيها رئيس الحزب . وأعضاء حزبه هم الورق المفضل . أما المواطنون ـ باقي الورق ـ فوجودهم ضروري كي تكتمل اللعبة .

الذي كان من شأني مع عاطف أنه ضيفني ثلاثة أيام في بيته نسيت خلالها أن أسأله عن الكراسة . لم يفارقني خلال تلك الثلاثة أيام شعور أنني لا أعيش داخل البيوت بقدر ما أنا مخزّن فيها لموسم لا يأتي .

حتى منامي لم يعد من أجل حلم شهواني . ولم يكن إلا فرصة للّاوعي كي يواصل مسيرة يقظتي . في كون يركض كله نحو البعيد بلا ذعر أو عجلة .

وإذ أنهض أجد في يديّ أعراف الخيول التي تقتلعني من فوق ظهورها وتدس من تحتي صهوة برق .

فأنطلق كرجل ذي مناخ خامل . يصلح كمكان تجرى فيه التجارب العلمية التي يرجى لها عدم تدخل الظروف المحيطة .

وعندما أهم بالبوح يغويني الشعر قائلا :

اللغة كائن من قصور التاريخ
وتفشي لإنحسار البيان
حتى لازمة الحديث

يا للرحيل الراهب في هذا الكون المبتذل . الأشياء هنا ذات اسم لا يحيط بها . والقواميس لا تعني سوى الشق الذي يمكن تدوينه من اللغة . ليس هنالك على الدوام إلا الأسئلة ذات الكتلة الحرجة :

إيه الخلاني ضيعتك يا روح

وعمّدك في ريفي الحزين

لو فكرة جابوك من وجود

ذي حداشر بُعد

الباقي من أبعادي وين ؟

ومن قبلك

كيف كان طقس الكلام

وآدم صاني طين

إنه السودان الذي وسع ما لم تسعه سفينة نوح . ولكن أي حمام أو بوم يأتيه بغصن زيتون ؟ لا يزال الطقس داخل طينة الأميبي جيرياً وملفوفاً في ورق جرائد تافهة . ملامح وجهي تخثرت فيها تعابير السلام . فلم تعد تتقن إلا تعابير الاستياء والضجر .

ودواخلي تنبطح كأرض فيها مخلفات جذور لنباتات كثيرة . لا يمكن لهذه النباتات أن تحيا أصلا إلا في جو من الاحتراب وقتل بعضها البعض . قلت لنفسي وأنا أتصفح شوارع ود مدني :

(الكارثة نعاني منها ولكنها تغير الحياة . ربما لو أشعلت النار في هذه الأرض المحتربة أقترب من موسم حصاد ما . فالمزارعون في أنحاء كثيرة من بلادنا لهم إيمان تجريبي بأن إخضرار الأرض من قيم الحريق . لا بد من إنفجار عظيم يأتي بالإنسان . كالانفجار العظيم الذي دس الكون تحت قدمي ابن آدم . ولنلغي ذلك الإنسان مزولة التراب . الذي قدره أن تراقبه السماء وهو يفور كالدود إلى الأبد). وعندها تدفق الشعر عبر لحائي كالصمغ . وبروح عجوز إغريقي موغل في الحكمة :

يا ابن آدم

عش كمعول

يلهث كي يمد نفسه للعمق

في أثناء تجوالي غازلتني فكرة العودة إلى أمريكا . فالجوع هناك بأي حال ليس السبب الوحيد الذي يؤدي للوفاة . كما أن العيش مع إنسان فقد صوابه أفضل من العيش مع إنسان فقد ميزاته .

الحقيقة أن عبارة : (يا تعدي يا تخلي المراكب للعرق) لم تكن تحتوي على خيار . أوروووك : (يا تعدي يا تعدي).

ولما بلغت من الغزليات تلك مراودة السفر صراحة لاح بنك السودان أمامي كمصاريف أو كتذكرة سفر يطير بها الهواء . ولم يكن هذا الذي أسموه جريمة سوى أنني قبضتها .

اضطررت للمكوث بود مدني ثلاثة أسابيع أخرى مضت كيفما اتفق . جمعت خلالها من الرجال البلهاء اثنين . لم يساعداني في العملية كلها بغير أن أوحوا إلى الذين كانوا بداخل البنك أن يرونني أنا بمفردي ثلاثة رجال . لقد استخدمتهم كخدعة بصرية لا أكثر . على كل حال الدور العظيم الذي لعبه الأبلهان في العملية أتى لاحقا . فقد كان لهما خصوصية الايقاع بنا في أيدي الشرطة بعد إنتهاء العملية بعدة أشهر . لقد رحلت أنا بعد الفراغ من العملية إلى الدندر مباشرة . ما كنت أقصد الاختباء وذهابي إلى هناك كان حالة تخص نفسها وتعنيها بدقة . كما أن الذي فعلته ما كنت لأعتبره سوى إضافة نظرية لعلم الاقتصاد . فعلم الاقتصاد اليوم علم نهب واسع جدا. ولن يعجزه إستيعاب عمليتي هذه في سلع قائمة الشرف : السلاح ، النفط الحدودي ، الأدوية الفاسدة والمنظمات المشبوهة .

أكثر ما لفت انتباهي في مدينة الدندر هو الكتابة على الحيطان . كتابات نسيها أهلها ونسيتها الحيطان . الذي كتب أنه يحب فتاة تركها من نفسه أو تزوجت هي بغيره . والذي كتب تسقط حكومة كذا إما أنه ترك مثل هذه الأمور وانشغل بغيرها ، أو سقطت الحكومة من تلقاء نفسها يأسا . إذ أن الحكومات عندنا تحبط كادرها قبل الجماهير .

عبارات أخرى كثيرة على الحيطان لدرجة تجعلك تعتقد بأننا نبني المدن من كلام . كتبت بألوان الأطفال والفحم والحجارة الجيرية والطباشير وكل ما يمكنه أن يترك أثرا على الحائط . مقولات مهرجة وأخرى حازمة في غير موضعها .

تلك الكتابات على الجدران كانت موضوعا مطولا وتافها كحملة إنتخابية . وربما نحن

أنفسنا موجودون هنا كتلك الكتابات التي يخطها أشخاص مجهولين ثم يمضوا . يا لها من فكرة ، أن نكون تذكارات لمبدعين نسوا موضوعنا وانشغلوا بغيره . لقد ذكرتني تلك الكتابات بمقطعي الذي يقول :

في مدينة قاحلة تتربص بي

اشتهيت لإسمي

لافتة يكتب عليها

ولكن في ماذا يعني كمال وشعره أهل الدندر ؟ كنت أخرج من زقاق وأدخل في زقاق . لا أدري ما الذي يمكن تفتيشه هنا . فالمدينة تنتمي للأدغال مائة بالمائة . وسكانها بلا حيلة ومذلولين كالشياطين المرجومة . قسوة الريف تسرقهم الشهوة والطموح وتقدير الأمور .

لمحت ورقة أو غلاف صابونة على الأرض فالتقطتها . يا له من اجتهاد غريب على ورقة صابون . ألوان وخط راقي ورسوم وشعارات وكتاب سيرة حوى بطولات منقطعة النظير لتلك الصابونة . شيء كفكرة الحياة . إجتهاد في تفاهة وإصرار مهما طال به العمر فلا بد أن يسيح زيته في السكة .

انتابني ضحك جنوني حينما اكتشفت أن الدندر وسكانها لا ذنب لهم . وأن الذي ينقصني لكي أعيش في سلام هو تلك الابتسامة التي كانت تزين فم الرجل الذي أنتج هذه الصابونة . تلك الابتسامة التي تراوغ وتطمع وتعني السرور . ويا لها من ابتسامة صعبة وربما مستحيلة بالنسبة لي . الآن بالضبط الرجل الأميبي يشعر بالجفاف . مواعين أضخم ساقية تهب وتحتل في أعماقي ما تطلع إلا بالطين .

ولذلك انسحبت إلى خارج المدينة . حيث يطلق السودانيون اسم حظيرة الدندر على تلك الأحراش . وفي رأي أنها جمهورية الدندر . لأنها تكاد تكون الدائرة الوحيدة الثابتة على مبدأ الانتخاب الطبيعي .

وجدت أن إنسان هذه الأجمة منسوخ من طبيعتها . فالذي ينمو هنا على نحو محترم ومهاب هو الحشائش السامة والأضراس . أو إنسان بدائي تشعب في قبائل تلعق ثأرها للأبد .

قمت بتأجير كوخ في تلك الناحية لا أعود إليه إلا للنوم أحيانا . إنها بيئة تصلح لمراجعة

معاني العزلة في مناخها الطبيعي . أدغال ووحوش وظلام وإنسان عاري لا يهمه شيء . لقد شجبت تصوري القديم للّيل . إنه هنا لا شيء . الليل هنا يضعف لأن الإنسان يستيقظ . هنا الحياة لا تلعب والأمور كلها جد في جد . لقد أراحني الحذر الذي فرضته عليّ الأحراش من أثقال كثيرة كانت تتعبني بلا فائدة .

كنت قادرا على أن أخوض في حديث محبب مع كل شيء يحيط بي دون أن أنطق . فقط أرقد على قفاي فأجدني خائضا فيه . كنت في الماضي أتملص مولولا وراجيا :

(اتركيني يا ذكرى فتاة القطار فحياتي تافهة . ولا شك أنني سأعتذر إن كنت سأعود لذات الحياة مرة أخرى . إنها كلهاث الكلب ولا تستحق التكرار) . ولكن حياتي في الأدغال حاولت أن تقنعني بأن الذي ينقصني هو الحب . وأن الجسد بكامله فم للجوع والذي يشبع هو القلب . لقد صدقت لمدى إنتشاءة مقطعي هذا :

لأنني بلا حب

يرصدني هذا الجوع للنساء

رغبة حيوان صادقة

لا تختار لها امرأة

فأية عابرة للطريق

تدلف بالنبيذ

لقد امتدت ذكرى فتاة القطار إلى ذاكرتي أيام ذلك الكوخ ، كصوت حليب بعيد . يصدم إناء الحلب بوقع رتيب يتجه خافتا نحو الإمتلاء . ألحّت على قلبي بشراسة كحال كل المتطلبات في الأحراش .

فاستضفتها في قارب تسلخ مقدمته جلد المياه . وتغري مؤخرته الطحالب الضالة فتتبعه في سفه .

مجاديفه ترتفع كأكف للدعاء ببطن الغابة ثم تهوي في المياه من جديد لتدك تجمعات الطحالب وعفونتها . رحبت بفتاة القطار كشخص موجود يشاركني غزو الغابة وظهر جوادي المائي . الذي استأجرته من أجل واقعة تتم بين الانسان وذكرياته الموغلة في القدم . الإوز كان يطبطب من حولي في المياه وينقر أخشاب القارب المهترئة .

حين أمسكت بقلمي لأكتب الشعر فاجأني شعور أنني أقبض على ذيل محراث . كتبت :

لفمي مرور النيل بين شفتيها الضفاف

قطار السابعة ينهب جانبا من الأرض

وحياة الناس

وأنا منتشر على الرصيف

كرائحة الكبريت

كالطازج من الدم

كبقع الرعاف

قلت في نفسي : (لو كان الشعر جميلا فهو لا يزيد على كونه فضلات عالم الحس والشعور).

حينها امتلأ إناء الحلب ودخلت في زمني القديم . فما زمن فتاة القطار إلا زمن مسافر . أخطأ مساره الكوني فاصطدم بأحاسيسي . فما يزال بعضي يشتهي بعضا مجهولا للهروب من قدر بعض وحيد .

ولا زلت أذكر يوم رأتني صوفيا أبكي في الظلام . كنت أتأمل من خلال نافذة الغرفة المظلمة عارضة خشبية مخلوعة تتأرجح في ضوء القمر . الريح التي تحركها هادئة وفيها وحشة حزن طامي . السياج بطوله بدا رهن خصوصيته في الوجود . خطر لي أن الأشياء أيضا لها مصير خاص . ولكن نحن البشر كل واحد منا يفهم الوجود على أنه هو . عقل هارب من وحشته وقلب ينبض بالمخاوف . لقد ملأني ذلك التأمل للعارضة برعب هائل ففكرت في الهرب . ولكن من ماذا ؟ وإلى أين ؟ الرعب الذي شعرت به جعلني شفيفا فافترسني بكاء مرير . شعرت بصوفيا تتململ وتدفع بفخذها العاري ناحيتي . لقد بدت لي أنها هي لوهلة . ثم بدأت ملامحها في الاغتراب عني . يبدو أن النوم جعلها تخلص لمصيرها الخاص .

سمعت صوت طائر ليلي يزعق في الظلمة . فقلت لنفسي : (إنه مصير لأحد تهتم به العناية الإلهية تماما . كمصير أي نبي انتدبته في مهمة).

أيقظ نشيجي صوفيا فرأتني أبكي في الظلام . قلت لها بسماحة دون عاطفة تنديد أو إدانة للحياة :

- مصيري ليس فيه أي شيء يدعو لأن يُخصص له بشر كامل . يمكن أن يكلف به أي

مخلوق لينوجد به وينتهي الأمر .

تحسستها في الظلام ثم أضفت ولصوتي مزايا رجاء حار وطفولي :

- لن تتخلين عني يا صوفيا ؟ ستقفين معي حتى النهاية ، أليس كذلك ؟ نعرة الفن قاتلة . كلهم يحتضرون في الخفاء . خاصية النفاذ إلى بواطن الأشياء تشدهم إلى العذاب بلا رحمة .

ضمتني صوفيا إلى صدرها بحنو فشعرت بها مختلفة وكلها جلال وسحر . كنت أحتضر وأحتضر في صدرها حتى توفيت . ثم دخلت إلى الحياة من باب كانت تستره عني دنيويات خلتها الأفكار . فقد اختمرت في دماغي عاطفة كالوباء . فجعلتها عارية كضب خلوي . ثم صمتنا ليثرثر الجسد .

حينها انكشف لي أن الجنس مكيدة تخلط مصائر الناس بعضها ببعض . لا أعني إنجاب الأولاد . وإنما اجتياز الهوة وأيدينا بأيدي بعض . فربما يكون المحرك النفسي للجنس هو المواساة ، فرعب الوجود قاسٍ ولا يحتمل .

ثم دونت هذا المقطع في أوراق صوفيا :

مُدّي إلي مصيرك يا امرأة

الليلة للعابرين بلا جسور

ولنحزم عبورنا

فكل ما أمامنا من المرحلة

هاوية للعبور

كان القارب قد أوغل في الغابة بمسافة طولها مدى ذكرياتي . أحسست بنفسي معزولا عن كل تشهي النفس . ودماغي لم يعد يطلق نفيرا للألم أو تنبيها للتشبث بشيء .

رجل وحيد ونهر وحيد في هذه البقعة من الأرض . للنهر حاشية من الغابات الشرسة . وللرجل حاشية من الجنون الموهوب .

بعد زمن طويل من دخولي السجن تذكرت هذا الاحساس . فقلت ربما في لحظة مثل هذه كتب بشرى محمود :

سأسند ظهري إلى غير ما جدار

يبدو أنه فرغ من المعركة التي تقوم على أرض منه . وأعلن نفسه كمخلص للأرض . أو كقديس لا يكل من الطيبة والدعوة لالتزام الهدوء . هو سيفعل ذلك كما يقول دائما : من أجل إنسان جميل وذي مبادئ . أما أنا فمقاتل من طراز لا يأمل في نتيجة معركة ولا إقامة صلح . السلام كله ولا غيره . جنة هنا والآن وبلا تسويف .

القارب يتقدم وأنا أتصفح عيون الوحوش البريئة . عيون بلا أمل وبلا يأس . لا تطمع ولا تحذر إلا في لحظة الحدث . فليس من خلفها ذاكرة ضمير تسمم براءتها بغازات ما اختزنته وتعفن . عيون ماضيها وراء اليم ومستقبلها ما أمام الشبكية . لكم هي المخلوقات رائعة عندما تخلو من قلق الإنسان وحيرته وتزامن الحنين فيه مع الموت والبعد .

رفعت رأسي إلى السماء المهيبة . كان لون الشفق نظيفا ودافئا . تعبره أسراب الطيور وهي في طريقها نحو المغيب . تعبره كوشم على يد غجرية . يبدأ غليظ اللون ثم يتدرج باهتا باهتا حتى يندفن في المسام . امضي أيتها الطيور . أنا أدري أن كل الأعشاش في جهة الغروب . لما انتبهت إلى القارب وجدت نفسي أجدف في طريق العودة وأنا لا أدري . تنهدت لا إراديا .

فالوعي الباطن هو البئر العفنة في الإنسان . ولكنها للأسف ذات البئر التي يرجى منها حفظ الحياة وأشياء أخرى كثيرة لا أعلمها . ولكن لا بأس إن لحظات الخطر تطهرنا من الذكريات السيئة . بكونها تجلية لما تكربن من أحاسيسنا .

الأكواخ تقترب ولم يعد يختلف عندي الخوار والزئير والفحيح عن صياح متفرجين بقاعة سينما أو دار رياضة . عربات الشرطة كانت مختبئة بين الأكواخ كحشرة بنت المطر في فصل غير الخريف .

كانت تنتظرني من أجل مسيرة جديدة . بعد أن كنت قد ابتلعت نفسي كنجم سماوي . ومضيت في ابتلاعها حتى اختفيت كهوة سوداء في فضاء الكون . غيبت نوري في أعماقي . وانتشرت كجوع في الفراغ . له أقدام كاذبة ومجال جذب شيطاني . الداخل إليه لا يمكن تمييزه عن ديناصور أو إنسان أو حجر .

وداعا فتاة القطار . لقد تركتي لي ذكريات كأشيائي . أشياء لا يمكن أن يغادر بها قطار أو يمضي بها زمن . إذ أنها ترتبط بما تبقى للإنسان من عمر وليس بما مضى .

سأقضي على بعض العذاب

بالعذاب كله

كي تتغذى نفسي جحيمها

بدلا عن محاولات هربها الفاشلة

بينما سيارة الشرطة تمضي بنا ناحية ود مدني خطر على بالي أن الحقيقة لحظة ما . وليست فكرة بعينها . وعندما تأملت القيود في يدي شعرت بأنني متوفى وتذكرت قولي :

والموتى حين نرميهم في القبور

نعمة حياتنا التي نتذكرها الآن

وجدواها التي تنسى بعد حين

صرخت في وجه البراري بوحي حقيقي وصادق : (جدوى الحياة أنك حي) . تذكرت أن العجوز الايطالي عندما دعاني لصداقته أجبته قائلا بكبرياء :

- أي شخص غريب بالنسبة لي إفتراض . وأنا نفسي علي أن أتحاشى الأمور التي يمكنها أن تحولني إلى افتراض . كالوقوع في حب امرأة أو الوقوع تحت تأثير حماس ما .

أجابني العجوز شامتا :

- هذا هو الضياع بعينه .

وقلت له مستنكرا :

- الضياع !؟ .. أبدا ، بل وجه شبه بالقدر . ألا يعني القدر تنفيذ جهلنا الكامل وبكل ما نمتلكه من عمر ؟

نهاية الكتاب الأول

إذن طباعة رقم ٧١٦٦

بتاريخ ٩ شوال ١٤٢٢ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر ٢٠٠١م
بموجب المادتين ١٢/١٤ من قانون المطبوعات والنشر رقم ١٥
لسنة ١٩٨٠ والقرار الوزاري رقم ٣١ ع لسنة ١٩٨٧م المنظم لهما

والآن أنا بلا مهمة . أكبر كل يوم ولا أتقدم نحو شيء...
تماماً كما في شعر كمال:

تحلق فوقي النسور
وأنا أهرب من جثتي لجثتي